# مذبحة البوسنة

هذه الترجمة الكاملة لكتاب

Wojech Tochman

**Jakbys kamien jadta**

صدر العمل الأصلي عن دار نشر
Znak, Poland

**فويتش توخمان**

# مذبحة البوسنة

ترجمة / **إبراهيم عمر**
مراجعة/ **محمود بطروخة**
الغلاف / **هانيبال – هيبو**

**سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من البوسنة**
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٤

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

**جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية**

**Sphinx Agency © 2014**
This book is published in the South-South Translations project framework of Next Page Foundation,
Financially supported by the OSI - Budapest

;

# فويتش توخمان

# مذبحة البوسنة

وكالة سفنكس

## مذبحة البوسنة

" حين تمعن النظر في المأساة البشعة لمسلمي البوسنة، ستدرك بصدق ولأول وهلة، أنك كائن بشرىّ، وستدع جنسيتك جانباً، فالوجدان الإنساني هو الجامع لكل البشر بفطريته .. كم كانت الأحداث ستتغير لو فهم كل الناس ذلك ! "

تدوراش مزوفيسكى

مقرر الأمم المتحدة

١٩٩٥

# صقيع

كان ذلك في اليوم الأخير من عام ١٩٩٢، ذلك العام الذي بدأت فيه الحرب، وقد قمنا بتقديم العون للمدينة المحاصرة .. سرنا بالسيارة من اتجاه الجنوب نحو البوسنة .. وقبل حلول الظلام شاهدنا قرى مدمرة بالكامل وقد خلت من الأحياء .. المنازل وأماكن العبادة تهدمت وسويت بالأرض تماماً .. ترى ما الذي حدث لهؤلاء الناس؟!.. سرنا بالسيارة عبر مدينة موستار، ولم تكن سوى مدينة تشبه الغابة.. بدا لنا شيئا ما يرفرف بجناحيه خلف نافذة مظلمة، ولم نعرف ماذا كان ذلك؟!..تملكنا الخوف أثناء عبور تلك الغابة، وعلى مشارف مدينة سراييفو أوقفنا بعض الجنود الصربيين، كانوا سكارى، مستغرقين في الضحك والمزاح، ثم تحولوا فجأة بجدية نحونا يصيحون فينا، استمر ذلك طوال الليل وحتى بزوغ الفجر.. صادروا جزءاً من حمولتنا وتركونا نغادر بالسيارة إلى المدينة .. كان الطقس صقيعاً ونحن نخوض المدينة وسط منازل ومباني أحدثت القنابل لها نوافذ وشرفات !..طالعنا في وجوه الناس الجوع والهلع، بل كنا نحن أيضا خائفين وسط صوت الطلقات المتواصل .. دراجون ابن لامرأة كرواتية ومن أصول صربية وبوسنية، لم يتوان في خدمتنا وكان مرشدنا في الطريق.. يقول أنه كان يضع في حساباته في حال بقائه حيّا، الفرار إلى خارج البلاد، إلى أي مكان آخر هربا من هول ما رأى .. أسأل نفسي أحيانا وبعد مرورهذه السنوات، هل مازال دراجون حيّا؟!

وأين يمكن أن يكون؟!

ذهبنا إلى المستشفى وتحدثنا إلى أشخاص فقدوا أطرافا من أجسادهم أو بعضاً من حواسهم .. أبلغتنا سيلفيا – إخصائية التخدير بالمستشفى بحاجتهم إلى: مضادات حيويّة، ضمادات، أسرّة، عكاكيز، أطراف صناعية، كراسي بعجل، وتوابيت!.. تعرفنا في الشوارع على صحفيين ومراسلين وصانعي أفلاما سينمائية، ومصورون، يتجولون في جماعات أو فرادى ويتحدثون بلغات عديدة .وفيما بعد وبعد مرور سنة في فبراير ١٩٩٤ رأينا الكثير منهم ثانية، حين قدموا في جماعات لمشاهدة ساحة السوق في ماركال وفي ثانية واحدة انفجرت قنبلة يدوية فقتلت بوحشية إثنى عشر شخصاً .. آلاف من تقارير الأخبار، مقالات مثيرة، معارض كتب، ألبومات صور، وثائق وأفلام قدمت الحرب في البوسنة بواقعية.

عندما انتهت الحرب - أو كما ظن البعض أنها توقفت ولفترة قصيرة فحسب-أخذ المراسلون الصحفيون يحزمون أغراضهم وكاميراتهم لينطلقوا باحثين عن حروب أخرى !

ملابس

في قاعة الاجتماعات بالمركز الثقافي بالقرية والتي تفتح كل ثلاثاء، يمكن لأي شخص مشاهدة وفحص المعروضات التي عثر عليها بعض سكان القرية .. يظن البعض أن بإمكانهم معرفة الحقائق من خلال هذا المكان .. توجد خشبة مسرح في قاعة الاجتماعات، ولكن بلا مقاعد للجمهور .. تم عرض الملابس على الأرض.. ملابس تم العثور عليها، وقد غسلت وجففت حتى تبدو ألوانها لمعرفة من كان يرتديها، الشخص الأول أم الشخص السبعون؟!..تم وضع القطع الملونة متراصة، وبعد أن

تم تصنيفها في ترتيب جيد، فمثلاً على يمين المدخل يوجد تى شرت أزرق مقلم بالأبيض، فالمتوقع أنه يخص رجلا قوى البنية، وآخر يبدو أنه يخص شخصاً نحيفاً.. سراويل قطنية متينة، كانت بيضاء والآن صفراء، ترى من كان يرتديهم؟!.. ساق سروال قطني متين ولا توجد الأخرى !، حذاء رياضي، فردة جورب أسود، سراويل داخلية .. أمام كل مجموعة من الملابس - أو بالأصح الخرق البالية - توجد حقيبة تحمل رقما مطبوعا وحروف للتصنيف :

حرف B يعنى أن الملابس متوافقة مع هيكل عظمى لجثة كاملة.

حرف BP يعنى أجزاء من جثة وبعض العظام (مجموعة غير كاملة).

حرف A يعنى ملابس فقط وبعض الأشياء المصنوعة يدوياً ولا توجد عظام

KV..وتعنى أنها من القبر الجماعي الذي أكتشف عام ١٩٩٩ بالقرب من كيفل جاناى، وهو قبر طويل ممتد لأكثر من مائة متر بطول الطريق، خندق تم حفره بعمق كافي وامتلأ بالرفات.

كيفل جاناى قريبة من بلدة اومرسكا وبها منجم تم استعماله كمعتقل للمسلمين عام ١٩٩٢، وكان معظم السجناء المعتقلين رجالاً، وكانت به بعض النساء معظمهن بقين على قيد الحياة .. أقارب الشخص المفقود الذين يأسوا من العثور عليه وتم تسجيله في تقرير أومرسكا منذ ثمان سنوات يتواجدون بقاعة الاجتماع، جاءوا ليلقوا نظرة، يمسكون بأنوفهم فليس لديهم بديل ولا يمكنهم التراجع، يودون أن يجدوا ضالتهم ليدفنوها!، ينظرون حولهم في مجموعات الملابس من خلال ممرّ ضيق

حتى لا يطأون على شئ بأحذيتهم، يمشون كأنهم خط مستقيم، ينحنون أحيانا فوق شيء يتفحصونه، ملامح حائرة، كلّ يتنقل من مكان لآخر، يتوقف ثم يتحرك ثانية، يستمر ذلك نصف ساعة، ساعة، ثلاث ساعات، كلّ حسب حالته، فئران تجرى في القاعة هنا وهناك .. زوجان شابان برفقتهما فتاة تبلغ سبع سنوات، يبحثون عن والدهم، جد الفتاة، وقفوا طويلاً أمام ملابس تحمل رقمKV22B .. سيدة عجوز ترتدي حلة زرقاء داكنة تنحني على بعض قطع ملابس ممزقة، منذ الصباح وهي تعاود الانحناء لنفس المجموعة، تهتم بترتيبهم كما لو أنها أرادت أن يبدون في مظهر حسن، سروال غامق، قميص فاتح، سويتر أحمر داكن..تربت عليهم وكأنها تربت على شخص تراه!.. اسمها الأم ميجرا.

حقائب الجثث

الشابان برفقة الفتاة ذات السبع سنوات، كانوا ممن قضوا وقتا طويلاً بالقرب من خشبة المسرح يتفحصون الملابس الخاصة بالحقيبة KV22B، نادوا على الشخص المسئول عن تحديد الهويّة، إنها د.أيوا كلونوسكى، امرأة نشيطة عجوز ولدت عام ١٩٤٦وبجانب ممارستها العمل كأستاذة في علم الإنسان فهي أيضاً عضو في المعهد الأمريكي للعلوم القضائية، زوجة وأم، هاجرت بولندا أثناء الحكم العسكري، عاشت في وارسو، والآن تعيش في ريكجافتشك بـ أيسلندا بشكل دائم، أما هنا فهى إخصائية في أصل الأبحاث لعلوم الإنسان..

تقول د.كلونوسكى عن نفسها :

عظام؟!.. أنا أحب العظام!، العظام تتحدث لي!.. باستطاعتي النظر إلى أي عظام فأعرف المرض الذي كان يعانى منه صاحبها،

وكيف كانت مشيته، وكيف كان يجلس، بإمكاني تحديد الجنسية من خلال العظام، عظام الفخذ للمسلمين تكون منحنية في شكل قوس نحيل، لأنهم يجلسون القرفصاء، اليابانيون أيضا لهم نفس الصفة لأنهم كثيرا ما يركعون!

التاريخ أعطى د.كلونوسكى الفرصة لتؤدى نوعا ما من العمل الساحر في البوسنة والهرسك خلال الحرب وبعد نهايتها.. ضحايا الاعتقال، الإعدام الجماعي، المقابر الجماعية.. تقوم كلونوسكى بتحديد الهويّة، طعمت نفسها ضد التيتانوس والصفراء وحزمت حقائبها، وودعها في المطار زوجها وابنتاها في سن المراهقة.. عملت في البوسنة منذ عام ١٩٩٦ بداية في المحكمة الدولية في الهاجيو، حيث كانت المحكمة في حاجة لمعرفة أعداد القتلى، وكيفية القتل.

الآن هي تعمل من خلال اللجنة البوسنية للأشخاص المفقودين، فالتعرف على الضحايا من أولويات عمل اللجنة.. د.كلونوسكى استخرجت ٢٠٠٠ جثة ! من أعماق الآبار ومن الكهوف، ومن مقالب القمامة بعد فرز واستبعاد لعظام خنازير .. وهي الآن تفحص شيئا ما في أوراقها.. ترتدي قفازاتها المطاطية وتصعد على خشبة المسرح.. تمشى د.كلونوسكى بحذر حتى لا تدوس على شيء فيما بين الحقائب البلاستيكية المحكمة الإغلاق برقم KV22B .. وجدت الحقيبة الصحيحة، فتحتها، أخرجت عظام فك علوي، الفك السفلى مفقود منه بعض الأسنان، تجمع الفك بكامله بمهارة وسرعة وتعرضه على الأسرة

- هل يمكن أن يكون هذا والدك؟!

تفحص المرأة الشابة الفك بدقة، وتنظر إلى زوجها فربما يعطيها رأى ما، وتمسك ابنتهما الصغيرة أنفها!

- نعم .. ربما يكون والدي.

وبعد مضى شهور قليلة نصبت بعض الطاولات الكبيرة أمام الثكنات، وتم تمديد خرطوم مياه من مزرعة قريبة، تجمع السكان حول المناضد: رجال ونساء وأطفال، يشاهدون د.كلونوسكى وهي تصنف العظام، تحدد الجنس والسن وتعيد جمعهم داخل حقائب الجثث

حقائب بلاستيكية بيضاء بسوست غلق بطول ٢ متر موضوعة على الأرض في الثكنات المظلمة تحوى جثث في انتظار أحداً يطلبها .تم البحث عن الحقيبة رقم KV22B ، وجدت موضوعة في مواجهة الحائط تحت حقائب جثث أخرى.. تنظر الفتاة إلى د.كلونوسكى وهي تفتح السوستة فتسأل والدها :

- لماذا تعرضون أبناءكم لهذا المشهد؟!

- حتى يتذكرون دائما !

هكذا كانت الإجابة التي طالما سمعتها د.كلونوسكى طوال أربع سنوات من العمل في البوسنة.

سألت د.كلونوسكى المرأة الشابة وهي تمسك بجزء من مفصل الفخذ في يديها اليمنى وآخر باليسرى :

- هل كان عند والدك مشكلة في فخذه؟!

- نعم.. وقد سبق له إجراء عملية جراحية .

قامت د.كلونوسكى بتقليد شخص ما يتهادى في مشيته وهي تسأل الشابان:

- هل كان يمشى هكذا!

- لا.. لا أعتقد!

- بل يبدو بوضوح أنه كان يمشى كما فعلت.. يجب أن تجدي المستشفى التي أجرى والدك فيها العملية، فربما لديهم بعض الوثائق.. عموما فأنا سوف أحضر الثلاثاء القادم وحينئذ سوف نأخذ عينة دم منك ونقارن الـ D.N.A الخاص بك مع العظام، وسوف نكون متأكدين ١٠٠% .

خلال وقت الراحة لـ د.كلونوسكى، نعود إلى المركز الثقافي ونجد السيدة العجوز التي ترتدي الحلة الزرقاء الداكنة، والتي رأيناها من قبل.. قدمت لنا القهوة وهي تقدم لنا نفسها :

- أنا الأم ميجرا.. آتى هنا كل ثلاثاء لمساعدة د.كلونوسكى وأواسى أسر الضحايا .

استحمام

الأم ميجرا داتوفيتش عمرها ٥٨ عاما، كانت تعيش في براى جيدور.. لا أحد ينسى ذلك الربيع، حين ساق الصرب الشباب المسلمين أمامهم مثل القطيع بطول الشوارع كدرع بشرى يحميهم من قوات المقاومة.. الأعلام الصربية تتدلى من المباني الرسمية ومراكز الشرطة.. كان المسلمون قد أمروا بنشر ملاءات بيضاء خارج نوافذهم، وأن يرتدوا أكماما بيضاء في أذرعهم، وقد اتخذ القناصون الصرب مواقع في البلوكات التي بها سكان .

براى جيدور الآن تابعة لجمهورية الصرب، وأصبح لا يوجد مكان بها للأم ميجرا، وهي تعيش الآن في بوسانسكاى بيتروفتش مع زوجها في منزل صربي لا يملكوه..

نتابع الأم ميجرا وهي تقف عند تلك المجموعة من الملابس : السروال الغامق، القميص الفاتح. تنحني الأم ميجرا لتعدل ساق السروال ثم تقف ناظرة إليهم، هل يبدون بمظهر حسن؟!

- هذا ادفين!

تقولها كما لو كانت تقدم لنا شخصا ما على قيد الحياة !

- ابنى ..الجنس والسن والطول والأسنان ينطبقون ولكن كلونوسكى ليست متأكدة تماما، ولم يجروا لنا بعد اختبارات D.N.A .. كان عندي ادفين – تقولها وهي تساوى ساق السروال مرة أخرى- وكان عندي إدنا، وأعرف كل شيء عما حدث لها، من ضربها، ومن أغتصبها، الشيء الوحيد الذي لا أعرفه هو أين ذهبت تلك الحافلة؟!..أخذوها من اومرسكا، ولم يتم العثور على ملابسها ولا حذائها في أي مكان طوال عدة سنوات .

دائما ما سافرت الأم ميجرا حول المنطقة، تعرض صور أولادها على الحوائط، وقد كتبت عنهم كتابا.. عندها إصرار على معرفة أي معلومات تقودها إلى الحقيقة، تزيد معرفة ثلاثة أشياء :

كيف مات أولادها؟.. من الذي قتلهم؟.. أين عظامهم؟

تبكى الأم ميجرا كل يوم في خفاء عن زوجها عزير حتى لا تزيد آلامه.. عزير مريض، بجانب أنه قد تلقى ضربتين فيما مضى، والآن هو ملتزم الصمت.. ينهض أحيانا من فراشه بصعوبة، ويلكم رأسه

بقبضته ويسقط راقدا على ظهره، ويخفى وجهه المشوه بيديه ويتلوى كما لو كان يحاول تلافى الركلة القادمة من معذب غير مرئي! الذي يبدو أنه يركله في البطن، ثم الصدر، وفي رأسه، وعادة ما يركله في الظهر وفي المؤخرة، فيقفز عزير ويتلوى كحرف S وهو يتأوه، ولكنه فجأة يتوقف واقفا بثبات، يحدق باشمئزاز كأن شيئاً ما يرقد على قدميه.. لم يعد عزير الأب القوى الذي يذهب لمركز الشرطة الصربية سائلا عن مصير ابنته .. دائما ما يراقب ضحية غير مرئي، يصيح بانتصار ! يركل شيئاً ما بعنف، ولا يزال يركل أقوى وأقوى، تحاول ميجرا تهدئته.

عندما اندلعت الحرب، كان ابنها ادفين في عمر ٢٧سنة، وقد تخرّج من كلية الهندسة الكهربية، تعلّم الإنجليزية والألمانية، تدرب على الكاراتيه وحصل على الحزام الأسود.. وفي ذلك الربيع انضم إلى قوة الدفاع الإقليمية، وقبل نهاية مايو كان واحداً من المائة جندي الذين حاولوا تحرير براى جيدور.. جُرح في حادث ثم مات في اليوم التالي.. كان ذلك ما رواه شاهد عيان، ولكن توجد رواية أخرى عن موت ادفين : شاهد آخر رآه في اومرسكا وهو يُعذب أمام أخته، رأى جثته وهي تُقذف فوق لوري أصفر كان ذلك في ١٦ يونية، وقد سار اللوري بعيدا لمكان ما، وتعتقد الأم ميجرا أن اللوري ذهب إلى كيفل جاناى، إلى خندق عميق بجانب الطريق قد حُفر عن عمد.. وبعد كل ذلك فها هي ملابس ابنها، الطول، الجنس، الأسنان، الكل يتطابق .

أما إدنا اخت ادفين فتبلغ من العمر٢٣ عاما، نشيطه، مرحة، صريحة.. عملت في محل بيع البضائع التي كان يصنعها أبوها، وكانت تقوم بدراسات خارج الجامعة في تازله، في وقت ما أرادت أن تصبح

عارضة أزياء، كانت تشبه باربای، هكذا وصفتها الأم ميجرا في كتابها.. كانت تخطط لشراء حصان ومنزل في جبل مكشوف من النقود التي ادخرتها ،كانت تحب التنزه سيرا على الأقدام في الجبال.. تدربت على الجودو والكاراتيه وبرعت في إطلاق النار، لذلك ذهبت على الفور بعد أخيها في نهاية شهر مايو لتشارك في معركة تحرير براى جيدور، حملت معدات وأدوية وضمادات من أجل الجنود، ونجحت في إنقاذ بعض الجرحى، وبعد القتال رجعت للمنزل مع والديها، واختبأت معهما في مخزن صغير، عاشوا في خوف وهلع بالقرب من منزلهم لعدة أيام، طلبت من أمها بعض الماء الساخن لتستحم، وتذكر الأم ميجرا أن مشيئة الله الرحيم جعلتها تحمم فتاها الصغيرة لآخر مرة.. قدم اثنان من جنود الميليشيا وأخذوا إدنا في سيارة مسرعة ذهبت بعيداً، دون أن تتمكن من أخذ سويتر لزوم الرحلة، فقد قال الجندي أنها لن تحتاج إليه .

جرى عزير على الفور إلى الميليشيا ليسأل عن ابنته، فناله ضرب وركل بقسوة، وعلم أنهم أخذوا إدنا إلى اومرسكا، اتصلت الأم ميجرا بـ نيبوجسا صديق إدنا ويعمل كبير محققين في اومرسكا.. لم يات للرد على الهاتف حين علم الذي كان يتصل به، لقد كان نيبوجسا هو الذي يستجوب إدنا مرارا، وبمجرد أن انتهى كانت إدنا بالكاد على قيد الحياة .

الحافلة

لعدة أيام وليالي كانت إدنا مع بعض النساء في ثكنات بطابق علوي، حيث توجد غرفة تحقيق، وطوال ذلك كانوا يسمعون رجالاً بالطابق السفلى وهم يعذبون.. كانت الأم ميجرا لا تزال تعيش في براى جيدور.. ذهبت لصديقة حميمة على بعد شارعين تطلب منها مساعدتها بحكم أنها

صربية، وتعرض مساعدتها بأي مقابل وفي أي شئ مقابل عودة إدنا للمنزل، ولكن الصديقة كانت لها مشاكلها الخاصة، فلمدة ثلاثة أيام لم يعد زوجها سلافكو للمنزل، فقد ذهب إلى كيرا تيرم واختفى.. وكان قد أخبر زوجته من قبل أنه سيعود سريعا.. والآن تعلم الأم ميجرا ما حدث له، ففي ذلك المكان معسكر سجناء، وخلال تلك الأيام القليلة تم قتل ٢٥٠ شخصا بدم بارد.. قتل، غسيل حوائط لإزالة الدماء، حفر خنادق للدفن، كل ذلك استغرق وقت، وكان هو السبب في غياب سلافكو تلك الأيام.. وأخيرا بعد أربعة أيام عاد سلافكو وحيدا إلى براى جيدور واتصل بـ ميجرا وقال لها :

- لقد توقفت بعيدا في اومرسكا وعلى الطريق رأيت إدنا.. كانت مرعوبة مثل ظبي وليد، وفي حالة سيئة، لم ترفع بصرها أو تسلم عليّ، ذهبت إلى المكتب الأخضر في محاولة لإطلاق سراحها، ولكن لم تفلح محاولتي.

تمت إدانة إدنا ذلك الحين لمشاركتها في معركة ضد قواتنا، وعلمت الأم ميجرا أن إعلانا قد وُضع بالمعسكر عن اختيار ١٢شخصا لمبادلتهم مع سجناء صربيين، وكانت إدنا وامرأة أخرى من بينهم، والبقية من الرجال، كان المعسكر بأكمله يحسدهم ! لأن الواقع يقول أنهم سيعودون قريبا إلى أسرهم، وساعد صديق إدنا في الصعود إلى الحافلة التي كانت عليها لافتة "نقل طلبة"..

لم ير أحد الحافلة مرة أخرى ! .

كروموسومات

في تازله يوجد منجم ملح، كما توجد مقبرة محليّة كبيرة، وبجانب بوابة المقبرة دار عزاء، وقاعة من الواضح أنه تم بناءها حديثا بواجهة من المعدن، ومن داخل القاعة يوجد بعض الرجال في ثياب من البلاستك مصممة بطريقة جيدة، وأغطية للرأس .

هؤلاء الشباب قد وجدوا عملاً !.. فهم يدفعون عربات كارو فارغة أو عربات يد.. خلف دار العزاء يوجد مدخل نفق يؤدى إلى المنجم – هو مسدود الآن – وتقدر مسافة النفق بمائة متر تحت الأرض، وبالداخل في الضوء الخافت توجد حقائب تحوى جثث على أسّرة مصفوفة فوق بعضها، وقد أصابها البلل من ماء يتساقط من السقف.. يجُر الرجال إحدى الحقائب البيضاء للخارج وعادة مايكون ملتصقاً بها الطين ويقذفون بها على عربة كارو، ويدفعون العربة نحو الحفرة الجديدة، مثل سوبر ماركت ملئ بالترولات .

عندما وصلنا إلى هناك كان نقل الجثث لا يزال مستمراً.. العظام الراقدة في النفق من المحتمل أنهم للرجال الذين شوهدوا مؤخراً في شهر يوليو أثناء الاختيار للقتل ! وتم اعتبارهم مفقودين، وفيما بعد تم العثور عليهم واستخرجت جثثهم ولم يتم التعرف على أحد منهم، وكالمعتاد كانوا في مقابر جماعيّة، اكتشفها قمر أمريكي ،وقد حاول القتلة محو الدليل بنبش المقابر بالحفارات الميكانيكية ودفن ما يستخرجوه في مكان آخر (مقالب زبالة مثلا).. كثير من المقابر بطول نهر دراى نا قد دُمرت بهذه الطريقة .

لاقى علماء علم الإنسان والمتخصصين القضائيين مشاكل، فالعظام التي كانت بالمقابر الثانوية من الصعب تصنيفها، فمن الصعوبة أن تجمع

شخصاً بأكمله، لذلك فمعظمهم وضعت عليه علامة BP، ومن الصعب أيضاً جمع الجثث السطحيّة وهي التي لم تدفن، لأشخاص تركوا ملقين على الأرض هنا وهناك، وفي الجبال حول البلدة، فالزمن والمطر والحيوانات جعلت المتخصصين يعملون بطريقة أصعب.

العظام التي جُمعت من الغابة كانت تخص حوالي ٤١٧ شخصاً، رجال ونساء وأطفال، ففي أحوال كثيرة حاولت أسر بالكامل الهرب عبر الجبال، فإن كانوا قد قتلوا جميعا فمن الذي سيبحث عنهم؟! فلا توجد لهم استمارات بحث ولا معلومات سابقة للموت، فلم يظهروا في الإحصائيات، وسوف يظلون في نسيان !

القاعة في تازله مثيرة للعاطفة.. المخزن البارد الذي يشغل الجزء الأكبر من المبنى، يوجد كمبيوتر لتثبيت درجة الحرارة المطلوبة وتوجد حوامل خاصة مرتفعة حتى السقف، تم عملها بطريقة مناسبة، وتركيبات معدنية خفيفة تحمل صواني معدنية بطول ٢ متر ولها عجل بالجانب السفلى .

عندما يصل أحد الرجال لحقيبة جثة فإن آخرين يكونوا في انتظاره بصينية فارغة موضوعة على رافعة عربة نقل صغيرة، وتبدو العربات ذات الروافع أنها قد تم شراءها حديثا، فهى مطليّة بلون ساطع.. ينقل الرجال حقيبة بيضاء فوق الصينية، فترفعها الرافعة بمحتوياتها إلى الارتفاع الصحيح، الجميع وعددهم ٨٦٠ شخصاً يعملون بجدية، فهناك ٣٥٠٠ حقيبة بيضاء، والعمال يبدون نشاطاً، يجمعون كل حقيبة مثل حقائب نوم، ويمكن جمع الحقائب بسلاسة فهي لا تمثل سوى بضع كيلوات قليلة من العظام، وضعت بحرية في الحقائب.. يضع العمال كل ثلاثة أشخاص على كل صينية، ترى ماذا سيحدث حين العثور على بقية

الضحايا ؟!، فبضعة آلاف منهم أين سيوضعون؟!.. لا مفر من تجهيز حجرة على وجه السرعة لتحديد هوية العظام الراقدة على الصواني ومن ثم دفنها .

كانت النتائج إلى حد كبير غير مؤثرة، فقط ٧٦ جثة تم التعرف عليها، فهؤلاء الضحايا كانت لديهم وثائق تحدد شخصياتهم، أما الغالبية فلا وثائق لديهم، فربما تخلصوا منها خوفـًا من العثور عليها!.. وحتى تزيد كفاءة العمل، تم نشر كتالوج على وجه السرعة به صور الملابس، بينما في لاساى بالانكا قد صنفت الملابس من قبل بعد أن تم غسلها، فأصبح بالإمكان النظر في الكتالوج لـ ٣٥٠ صورة -كما في المجلد الأول- .. ولا يزال العمل مستمراً بتمويل من اللجنة الدولية للأشخاص المفقودين التي أنشأها الرئيس كلينتون بعد نهاية الحرب في يوغوسلافيا، وتقوم اللجنة حاليا ببناء المعامل ليقوم المتخصصون بعمل اختبارات ال D.N.A الموجود في الكروموسومات في نواة كل خلية من جسم الإنسان، وهذا النوع من المعامل جارى إنشاؤه في تازله، وسوف يستدعون أقارب الضحايا من أطفال وأخوة وأمهات وآباء – الذين ملئوا استمارات البحث – لإعطاء دماءهم، ومن خلايا الدماء سوف يحددون ال D.N.A الخاص بهم، ومن خلال أجهزة الكمبيوتر ستتم المقارنة مع ال D.N.A الذي يؤخذ من العظام، وسيتم معرفة شخصية الضحية، وتتكلف عملية الكشف تلك ١٠٠ دولار لكل شخص، سوف يدفعها العالم من أجل ذلك.

اختبار ال D.N.A جديد إلى حد ما في تاريخ الحرب، لذلك توجد: حقائب جثث، أجهزة كمبيوتر، انترنت، ثلاجات اليكترونية، عربات نقل

ذات روافع، نقالات على عجل... ووجد في مقابل ذلك من قبل أحداث ووقائع: معسكرات اعتقال، ثكنات، أقليات، أماكن إخفاء، ضحايا، أساور على الأذرع، أكوام من أحذية تركها ضحايا مذبحة جماعية، طرق على الأبواب من زوار الفجر، دماء على الحوائط، جوع، نهب، حرق مزارع ومباني ومخازن حبوب بداخلها أحياء، أحكام جماعية، مقابر، محاكمات دولية، وأناس اختفوا تماما!.

بعد الحرب في البوسنة يوجد ٢٠٠٠٠ مسلم مفقود، ومن يعثرون عليه تقام له جنازة ويصلى عليه كشأن المسلمين.

# الرحلة

روائح كريهة داخل الحافلة، فمعظم النساء المسافرات يدخن السجائر، وليس بالإمكان فتح النوافذ ولو سنتيمترا واحدا، فالبخار متجمد على الزجاج والمسخن لا يعمل.. النساء يرتدين إيشاربات وسراويل طويلة وتنورات ثقيلة، لكنهن بالرغم من ذلك يرتعشن!، ليس من البرد بل يحتمل أن يكون من الأعصاب، ربما الخوف!، رغم أن الخوف قد تركوه في القرية، فهم يقولون أنهم طُردوا من سراييفو ولم يكن من سبيل سوى المغادرة باتجاه الشرق.. الطريق شديد الانحدار ومليئ بالحفر، وبالرغم أنه كان شهر أبريل إلا أن السماء كانت تمطر ثلجاً، وأمامنا ١٥٠ كيلو متر حتى نصل إلى مكاننا المقصود عند الظهر .

موبينا سماجلوفتش ٣٦ عاماً، ذاهبة للمرة الأولى، وكانت قد هيأت نفسها للقيام بتلك الرحلة من وقت طويل، وإن كنت لا أستطيع أن أفهم ما قالته لأمها منذ خمس سنوات :

- إنك لا يمكنك العيش في عالمين، قدم في هذا العالم، وقدم في العالم الآخر..

دعونا نذهب ونرى ما الجديد هناك .

استيقظت موبينا قبل الفجر، قبّلت أبناءها النائمين، تحدثت مع أمها التي طالما تعانى من الأرق بحديث قصير، وتناولت بعض حبوب بيضاء مع قهوة، وهي ترتدي معطف قصير وتهبط سبع مجموعات سلالم، فالمصعد في بلوكهم لا يعمل منذ سنوات، وأمها لم تخرج من المنزل منذ شهور.. عبرت الكوبري المؤدى لمحطة

الحافلات، جلست بالمقعد الأمامي يمين بالقرب من السائق، لتتمكن من رؤية الطريق وما على جانبيه.. امرأة جميلة، وربما كان سبب جمالها أنها حزينة!: عيون سوداء، شعر أحمر – وقد تكون صبغة حمراء تخفى الأبيض منه-، بشرة مجهدة، نحيلة، حسنة الهيئة، طويلة، وتبدو نشطة.. ترتدي جينز، بدون إيشارب.. تقوم بتجهيز قائمة المسافرين التي سيتم فحصها قبل بداية الرحلة للتأكد أن الجميع داخل الحافلة.. المسافرون تخطوا مرحلة الشباب، ولا تبدو عليهم أي من مظاهر السعادة .

موبينا لا يبدو عليها أي قلق أو توتر، وإن كانت الأكثر خوفا من بين النساء!، فهي لم تجرب الخوف الذي عايشوه، فمنذ ثلاث سنوات لم تكن هناك، فقد رحلت مع والديها وأبنائها الصغار - في عمر ٤ سنوات والآخر ٤ شهور- في ابريل ١٩٩٢، في ذلك الشهر الذي بدأت فيه الحرب في البوسنة، وقد توسلت موبينا لزوجها حسن أن يأتي معهم، ورفض حسن الرحيل معهم :

- سوف ابقى!.. فمن الذي سيعتني بالحيوانات؟.. الموقف سيهدأ، وحينئذ يمكنكم الرجوع للمنزل .

اليوم يكون قد مر ثمان سنوات منذ قال لها حسن ذلك.. الأحداث الآن هادئة.. وبدأت موبينا رحلة العودة.

# شجر برقوق

زال الجليد عن النوافذ.. الحقول الخضراء أينعت بالأزهار، ونحن نسير بالسيارة بطول نهر الدراى نا باتجاه مدينة براتانتشى، نجتاز القرى التي عرفتها موبينا منذ الطفولة، وآخر عهدها بهم منذ ثمانى سنوات، فما تراه الآن يبدو مختلفا عن ذي قبل، فأكوام من الحطام والمنازل المحترقة في كل مكان.. شجر البرقوق في أوان الثمار، ولا يوجد سكان.

بمجرد اندلاع الحرب غادرت موبينا مع أبنائها ووالديها المكان إلى بلجراد، وحين وصلوا بلجراد أعلن والدها بحسم :

- سأعود إلى المنزل الآن !

توسلت النساء إليه أن يبقى، ولكنه أصرّ:

- سأعود..وسوف أحرس كل شيء..والأحوال سوف تهدأ، وسيمكنكم العودة أيضاً .

وعندما عاد والد موبينا وحادثوه هاتفياً، قال أنه موجود في بيته في براتانتشى ويشعر بالهدوء..ورغم ذلك لم تكن المنطقة هادئة..وفي اليوم التالي لم يرّد والد موبينا على الهاتف ولا زوجها.. ليسا في المنزل ولا في العيادة البيطرية.. ماذا حدث؟!.. اتصلت موبينا بالجيران، فقالوا لها أنهم شاهدوا والدها بالأمس أمام المنزل، وكان كما يفعل دائما، في حين قدم بعض التشيتنكس بسيارة وسألوا عن اسمه ونظروا في قائمة ودفعوه في سيارتهم، وفيما بعد عادوا مرة أخرى وأخذوا سيارتكم الفولكس فاجن.. ومنذ ذلك اليوم لم تعرف موبينا ماذا حدث.. من أخذ والدها وإلى أين ؟!

تقول موبينا وهي تجفف دموعها وتخرج أحمر شفاه وعلبة تجميل صغيرة ونحن نقود السيارة داخل براتانتشى :

- يجب أن أجد عظامه!

تقع براتانتشى على أرض فسيحة منبسطة، تقريبا على الدراى نا، والنهر يقسم جمهورية الصرب من صربيا.. البلدة لا يوجد بها شئ خاص يميزها، أشجار قليلة، فندق به نافورة (هو المكان الذي أهان فيه الجنرال الصربى راتكو ملاديتش قائد قواة الأمم المتحدة الألمانية)، البنك الذي اعتادت موبينا العمل به، مدرستان، بعض المنازل، شقق في بلوكات قليلة، وبعض الناس في الشوارع .

الناس واقفون ويحدقون، وقد وصلت البطالة ٦٠%، وفي براتانتشى النسبة أعلى، فقط توجد ميزة واحدة، هى أنها قريبة من سربيرينتيشا، عليك فقط أن تقطع ٥كيلومترات بطول طريق الإسفلت نحو الجنوب، ستمر على بعض مباني المصانع في قرية بوتوكارى، وسوف تجد البلدة في قرية خضراء ضيقة .

طوال الرحلة والنساء جميعهن داخل الحافلة، يؤكدن أن هذه المنطقة جذابة بشكل مميز، وغنية بالمياه المعدنية الخاصة بالاستشفاء، وهي غنية بالحديد الذي يجعل لون المياه حمراء، وتعالج الأنيميا أيضاً .

موبينا لا ترغب في النزول إلى سربيرينتيشا، بل أيضاً لا تلقي بنظرها في هذا الاتجاه!

# حبل

تكتب الصحف وطوال سنوات قليلة في شتى أنحاء العالم عن سربيرينتيشا، وغالبية سكانها مسلمون، وعندما اندلعت الحرب في البوسنة، اتحد مسلمون من المنطقة المحاصرة معهم، كانوا في مجموعهم حوالي ٣٠٠٠٠ تجمعوا في تلك المدينة الصغيرة المزدحمة، بجانب ضعف عددهم في الضواحي.

فر الصرب المحليين إلى أهلهم، مع أنه من الواضح أنه لم يجبرهم أحد على الرحيل.. حاصرت قوات صربية البلدة والضواحي، طوقوها وأحكموا السيطرة على المكان لمدة ثلاث ساعات، وأعلنت الأمم المتحدة أن سربيرينتيشا منطقة آمنة، وكان ذلك معناه عدم حدث مكروه لمواطنيها.. كل يوم وخلال ثلاث سنوات كانت المستشفى تستقبل ٣٠ جريحا، وكان جراح واحد يعمل به: بتر سيقان وأذرع!، بالإمكانيات المتيسرة: موسى حلاقة، ومنجل، ولا يوجد مخدر ولا مضادات حيوية !

لمدة ثلاث سنوات كان متوسط الموتى خمسة أشخاص يومياً في سربيرينتيشا ويزداد أحياناً إلى عشرين.. المدينة ليس بها عمال نظافة، ولا توجد أدوية ولا ملح، يأكل الناس الحشائش والجذور، زهور بندق وخبز من قوالح ذرة مطحونة، وهذا النوع من الخبز صعب الهضم ويسبب الآما قاسية في المعدة.. وأخيرا كان الطعام يأتي من السماء !، لكنه كان قليلاً، تسقطه طائرات الناتو NATO، وكلما سقط طعام يتقاتل عليه الجياع بالسكين!.. وجاءت النهاية في ١١ يوليو ١٩٩٥، إذ انسحب الدفاع البوسني من الضواحي بعد أن أبلغته الأمم المتحدة أنه وفي خلال

فترة قصيرة فإن طائرات الناتو NATO سوف تقذف المواقع الصربية بالقنابل.. ودخل الصرب المدينة في ذلك اليوم.. دخلت النساء اللاتي كن معنا في الحافلة واللاتي عايشن الإرهاب من قبل، ولم تجتز موبينا الاختبار الذي نُظم في قرية بوتوكارى، فـ موبينا لم تعرف الإرهاب ولم تعايشه كبقية النساء.

زينيتا.. \\عمرها ٤٨ سنة، لم تكن أيضاُ ضمن الاختيار، وتعيش حاليا في فوجوستشا خارج سراييفو، لم تأت معنا اليوم، لأنها منذ يوليو زارت منزلها ثلاث مرات، وليس لديها من القوة حالياً لزيارة رابعة.. كان الناس يذهبون إلى بوتوكارى بلا إكراه، معتمدين على مساعدة الجنود الألمان الذين كانوا يتمركزون هنا.. وقفت زينيتا في طابور من ٢٠٠٠٠ شخص مع ابنتها البالغة من العمر ١١ سنة، وابنها ٢٠سنة.. كانت النساء والأطفال في صف نحو اليمين، والرجال في صف نحو اليسار، وتم تمديد حبل بارتفاع ١٥٠ سنتيمتر مثبت على حامل، فمن كان أطول من هذا الارتفاع من الأولاد يؤخذ بعيدا عن أمه لصف الرجال !.. في ذلك اليوم كان الطقس حاراً لا يحتمل في بوتوكارى، والناس ليس لديهم ما يطفئ ظمأهم.. ومن بين الصرب تعرفت بعض النسوة على جيران وزملاء المدرسة أو العمل، وتلاميذ تعرفوا على مدرسيهم .. وفي النهاية ظهر قائد الجيش جن راتكو ميلادتش وخاطب النساء من خلال مكبر صوت :

جئت لأعلن لكم أن سربيرينيتشا أصبحت صربية،وأصبحتم في أمان !

وبعد مرور شهر سمعوا في الإذاعة المحلية أن قمرا أمريكي قام بتصوير بعض الحقول الواسعة ن وأكتشف في باطنها أرض مزدحمة

على نحو جديد من المقابر الجماعية، فخرجت النساء في الليل إلى الخارج يصرخن ويولولن.. وبعد مرور ٣٣ يوماً جاء رجل عجوز نحيف تكسو وجهه التجاعيد، ووقف أمام زينيتا التي لم تعرفه للوهلة الأولى، كان زوجها !.. بقى على قيد الحياة كل تلك الأيام في الغابة !.. سألت زينيتا عن أبنائها، فأخبرها أن في يوم من شهر يوليو قرر مع ابنهما الأصغر كمال أن ينفصلا على أمل أن يبقى واحد منهما على الأقل على قيد الحياة ليعتني بالأسرة، فذهب الأب نحو الشمال الغربي في الجبال، وذهب كمال نحو الجنوب، وتعاهدا على ألا يأخذ الصرب أحدهما حيّا، وأنه في حال الخطر سوف يحمل كلا منهما قنبلة يدوية في حزامه.. وعاد الأب للمنزل، ولم يعد كمال، ولا الابن الأكبر كارم الذي ظل في بوتوكارى.. كان على زينيتا أن تحرس زوجها لأن الأحداث الماضية جعلته يرغب في الانتحار.. وقد اعتبرتهم النساء أصدقاء، قالوا لها أن حالها أفضل من غيرها، فزوجها مازال على قيد الحياة، وكذلك ابنتها، و كمال أيضاً قد عاد بعد تجوال في الغابة دام طوال ٤٤ يوما يتلافى خلالها كمائن الصرب، ولكن ماذا عن كارم؟!

بعد مرور أربعة شهور سمعت زينيتا في الإذاعة أن معاهدة سلام تم توقيعها في دايتون بأمريكا، على أساس أن البوسنة والهرسك سيكونا تابعين لجمهورية الصرب.. قالت زينيتا لزوجها:

لقد أعطوا نصف الدولة إلى الشيتينكس كمكافأة سخية عوضا عن دمائنا!

في الربيع التالي علموا من الإذاعة أن فرق من محكمة الهاجيو كانوا يعملون حول سريبرتنيتشا، وقد وجودوا ٣٥٠ جثة في مقابر

جماعية، على نحو جديد، لم يذكر الراديو شيئاً عن الباقين وهم إقل من ١٠٠٠

من أجل هذه الأسباب تسافر زينيتا إلى منزلهم القديم.. موبينا لا ترغب أن تتجول حول المكان هناك، وهي لا تعرف زينيتا، ولكنها سوف يلتقيان قريباً! ثمة أحداث ستحقق هذا اللقاء.. والآن نحن ذاهبون إلى منزل والد موبينا وفي طريقنا إلى براتاناتشة رأينا المنزل لا يزال قائما !

# منزل الأسرة

منزل أسرة موبينا صغير ذو لون أبيض وسقف من القرميد، في هذا المكان ولدت موبينا، وفي هذا المكان اعتادت أن تبدأ الرحلة إلى المدرسة، وفيه تزوجت حسن الطبيب البيطري، وكانت تقف أمام المنزل تنظر إلي وتشكو إهمال الحديقة، وتمتدح الطقس الجميل!

طالما كانت تخفي خوفها من مجهول قد يكون مختبئاً وراء بوابة الحديقة، وأخيراً تدفع الباب بحذر وتصعد السلالم الأسمنتية.. توجد امرأة شابة في المدخل تشعر أيضاً بالخوف، فالكثير من الناس في البوسنة خائفون من ضيوف غير متوقعين وغير مألوفين قبل الحرب.. الساكن الحالي للمنزل بعد رحيلهم كان يعيش في السابق قريبا منه، في كرافيتشا وكان منزله قد دُمر، أحرقه المسلمون من سريبرينيتشا، وقد صادروا كل شيء يأكله الصرب، فقط سمح لكل أسرة بجوال دقيق ليعيشوا عليه لبعض الوقت، ولكنهم أحرقوا المنازل أيضاً ليضغطوا على السكان الجدد.. تقول موبينا:

- قتلوا الصرب.. نعم!، فعلوا ذلك .

وتنظر موبينا هنا وهناك في الحجرة،تدقق النظر لترى أي ممتلكات تركها والديها.. كل شيء كان قد سرق، وبالتأكيد قبل أن تنتقل الأسرة الصربية القادمة من كرافيتشا إليه..وبعد الحرب البوسنية استطاع الجميع العودة إلى منازلهم الخاصة، عاد كل لاجيء وكل شخص كان قد أُجبر على الرحيل..المسلمون الذين يحتمون في الإتحاد الفيدرالي للبوسنة والهرسك يمكنهم الآن العودة إلى بلدانهم وقراهم في جمهورية الصرب..

أم موبينا مثلا استطاعت أن تأتي إلى براتاناتشى وتقول للمرأة الصربية الشابة :

- هذا منزلي !.. من فضلك ارحلي !

ولو رفض الساكن أن يطيع أم موبينا، فسوف تطلب العون من السلطات الصربية المحلية .

لا توجد نساء مسلمات يحاولن العودة إلى وطنهن في الدراى نا.. موبينا وأمها والأطفال يعيشون في سراييفو في منطقة الـ جربافيتشا التي كانت أثناء حصار العاصمة تحت سيطرة الصرب.. وشقة موبينا التي تقع في الطابق السابع عشر في مبنى برج سكنى ضخم ذات موقع جيد لرؤية المدينة، فمن المعتاد أن يمتلكها بعض الصرب، بناءً على اتفاقية دايتون والتي تعطى حق عودة للجميع إلى مساكنهم الخاصة .

الصرب الذين استقروا مؤقتاً في جمهورية الصرب أو في أي مكان آخر، يمكنهم استعادة منازلهم من خلال الاتحاد الفيدرالي للبوسنة والهرسك، وبالمثل أيضاً في سراييفو.. قليلون في ذلك الحين حاولوا بمساعدة السلطات البوسنية طرد السكان المسلمين الغير شرعيين خارج منازلهم.

هؤلاء المطرودون عادة ما يحصلون على شقة أخرى يملكها صربي، والذي ربما يرفع دعوى بملكيته أيضاً.. والصرب لا يعودون عادة ليستقروا، بل يعودوا فقط ليجمعوا ممتلكاتهم ويبيعون منازلهم، فأي شخص لديه مال يمكنه شرائهم.. والمرأة الصربية الشابة يمكنها العودة إلى كرافيتشا المدمرة حرقاً، فيوجد برنامج لإعادة البناء في البوسنة،

وأي قرية أو بلدة تهدمت فيمكنهم الاعتماد على المساعدة لإعادة بناء المنازل.

الغرب يقوم بالمساعدة.. في براتانتشى لا أحد يتوقع من أي نساء مسلمات أن يتجرأن ويعودوا، ولا أحد يقول كلمة عن الرجال المسلمين، كما لو كانوا غير موجودين.. ثلاث أسئلة لم تسأل في بوسنة اليوم :

كيف حال زوجك؟!.. كيف حال ابنك ؟!.. ماذا فعلتِ في الحرب؟!

- إنه أنا !

قالتها موبينا لصديقها الصربي دراجون.. اتسعت عينا دراجون من الدهشة :

أنت؟!.. هنا؟!

يعرفون بعضهما من الملعب، وهو قد كان شاهداً على حفل زفافها الإسلامي، فالرجل أفضل للشهادة.. وقد كان قبل الحرب شريك لوالدها في أعماله، كانا يمتلكان طاولة مشتركة في إدارة المخزن.. تجارة في الأدوات الصحية، والآن لا يوجد مال كافى للتجارة، لذلك يبيع دراجون صنابير وأنابيب فخارية من مخزن قريب.. مدت له موبينا يدها بحذر بدون ابتسام.. دعاها دراجون للدخول واحضر بعض المقاعد، ووضع الغلاية على الموقد، يرتب الكراسي يغسل بعض الأكواب.. ويخرج بسرعة إلى المحل فقد فهم أننا ليس لدينا وقت، فنحن لا يمكننا الانتظار.. خمس دقائق، عشر، خمسة عشر.. وأخيرا عاد محضراً معه بعض الشيكولاتة باللبن، وعلبة كرتون عصير برتقال "هابى داى" ويشير لـ موبينا عليها قائلاً :

- فاكره؟!

تبتسم موبينا قائلة :

- في راتانيتش نحن معروفون بسبب مستشفياتنا، ألم نكن كذلك؟.. وما أخبارك؟!

- أولاد يكبرون، جوفانكا تعمل، آه.. من النادر أن تجد امرأة وظيفة الآن، فأنا لم أحصل على وظيفة.

- وكيف حال التجارة ؟!

- السوق ضعيف، الناس فقراء، لا يبنون حمامات في سراييفو.. كيف حال الأولاد.. هم يكبرون.. وأمك؟!

- على قيد الحياة !

نهض دراجون وقد بدا على وجهه الانزعاج، فوقتنا قد انتهى، وبعض الزبائن قد وصلوا.. وبالخارج رجل يحدق فينا بحذر، يحدق في موبينا.. يقف أمام محل خضروات وفاكهة، ومن الطريقة التي يتصرف بها يبدو أنه المالك.. يلوح لنا بيده ويقول لـ موبينا :

لقد كبرتِ!.. وأنا قد أصبحت عجوزاً.. طالما تناولت العشاء في منزل والدك، كثيرا ما كان يحدث ذلك! هل نسيتِ؟! انتم أناس طيبون.. لقد أخذوا ابني ولم أملك أن أفعل شيئا له!.. وقفت هناك أشاهدهم وهم يأخذوه بعيدا.. ولا أدرى أين عظام أبى؟!.. أمي لا تستطيع لبس ثياب الحداد طالما لا توجد عظام.. نريد أن ندفنه.. لا توجد وسيلة نحافظ بها على أرواحنا .. الحرب مروعة! ولكنها انتهت بالتأكيد.. زيارتك هذه تعنى فرصة مناسبة لشفاء الجراح.. يمكن أن نلتقي على المقهى، فنحن

نعيش الآن قريبين من بعضنا البعض... وكل ليلة يعود كل منا إلى منزله.. إلى مكانه الخاص .

## معلومات ما قبل الموت

ذهب حسن - فى وقت ما- لتقديم الطعام إلى الحيوانات، بعد أن غادرت زوجته المكان.. كان يحظى باحترام الناس لاجتهاده وأمانته، كان بشوشا وذو روح مرحة .

بعد حفل زفافه وموبينا انتقلا ليعيشا في منزل أنيق بالشارع الرئيسي بالدور العلوي.. واليوم ذهبت موبينا لزيارة المنزل.. صعدت الدرج، وفتحت الباب، جلست في غرفة المعيشة، وهي لا تكف عن التفكير، هي لا تعرف الكثير عن موت حسن، وتريد أن تعرف كل شيء حدث بوضوح :

كانت الميليشيا دائماً ما تستدعيه، ولكنه كان يعود بعدها!، ولكن الجيران الصرب خافوا عليه فساعدوه على الهرب ورتبوا مكانا لإخفائه في الغابة، حيث قضى عدة أيام، وعندما حانت الفرصة ذات ليلة ساعده الجيران في العبور إلى سربيرنيتشا، وبعد مضي يوم أو يومين، كان كل المسلمين في براتانتشا قد أُخذوا إلى ملاعب المدرسة، حيث كان ذلك هو الاختيار الأول الذي حدث.. النساء على اليسار، الرجال على اليمين، ثم قتل ٢٠٠٠ رجلاً في المدرسة، كان ذلك في منتصف مايو ١٩٩٢ تقريباً.. وكان ذلك الاختيار سابق لاختيار بوتوكارى بثلاث سنوات.. واعتقد من هرب إلى سربيرينتيشا أنه نجا!

فى سربيرينيتشا ذهب حسن ليعيش في منزل خالته مع رجال آخرين، كان منهم أعمام له وأخوال وبعض الأقارب.. وحادثته موبينا لاسلكيا عدة مرات، كان ذلك أثناء سنوات الحصار الثلاث، لم يقل شيئاً،

فقط كان يرغب أن يعرف كيف نحن؟!.. أخبرته موبينا أنها هربت مع أمها والأولاد من بلجراد إلى جاب لاجانا، وأنهم يعيشون في مبيت طلبة تحول إلى معسكر لاجئين وأن الأولاد يكبرون!.. وفي يولية ١٩٩٥ - يوم الاختيار - في بوتوكارى لم ير أحد حسن، ذلك الطبيب البيطري، مثل المئات الآخرين الذين هربوا عبر الغابة، ذلك كل ما تعرفه موبينا، فقد كانت دائماً - حين كانت- في جاب لاجانا في تلهف لسماع الأخبار، فإذا سمعت وقع أقدام على الدرج، أرادت أن تجرى إلى الباب.. وبعد الحرب حين انتقلت إلى سراييفو، كانت كثيرا ما تطل من النافذة في انتظار ساعي البريد!

في هذه الأيام كانت موبينا تذهب شهريا إلى المكتب المختص بالمفقودين، لتحصل على معاش زوجها، الذي سجلته رسميا كمتوفى، من أجل إطعام أولادها، كما كانت تفعل كل الأرامل غير عاملات ليعيشوا.. وقد سجلت في استمارات البحث البيانات الشخصية لزوجها وأبيها : الاسم الأول، اسم العائلة، الطول، لون العين، لون الشعر، شكل الجمجمة، المرض السابق، أسنان مفقودة، عظام مفقودة.. تسمى تلك البيانات باللغة المهنية "معلومات ما قبل الموت"، وضعت موبينا معلومات ما قبل الموت في مظروف تم إرساله إلى تزلة، ولعدة شهور وحتى الآن، هي في انتظار الاستدعاء!

# أمهات

زينيتا، كانت تنتظر هي الأخرى من أجل الاستدعاء إلى تازلة حيث كانت ولعدة سنوات تعيش في فوجوستشا خارج سراييفو، واستقر بها المقام في حجرتين بطابق علوي من المنزل الذي انتقلت إليه مع ابنتها والابن الأصغر والزوج، كانت الحجرتان محطمتين تماماً مثل كل المنازل في فوجوستشا.. كانت البلدة أثناء الحرب محددة جغرافيا على أنها من الجانب الصربي.. وعندما وُقعت معاهدة السلام في دايتون، بدأ الصرب في جمع كل شئ مستطاع : الصنابير، مقاعد الأحواض، المغاسل، أحواض الاستحمام، الأواني، الأنابيب الفخارية، الأبواب، العتبات، النوافذ، قضبان الستائر، الباركيه، مقابس الكهرباء، وكابلات التمديد والعدادات خارج الشقق.. كما أخذوا من مصنع قريب خط إنتاج كامل للسيارة الجولف فولكس فاجن، ففي تاريخ يوغوسلافيا كانت تجمع السيارة الجولف هنا وعلى الجانب الآخر من سراييفو.. أخذوا المحركات والكابلات والمقاعد، لم يستطيعوا أخذ الحوائط!

جهزت زينتا وعائلتها الشقة بما هو متاح، وهي في انتظار متوقع لشخص ما سوف يطرق الباب يوما ما ليطالب بالعودة إلى ملكيته!.. تقول زينتا :

حينئذ أين سأذهب ؟.. إلى سربيرينتشا ؟!.. جاري الصربي السابق يعيش في منزلي، ويأكل عشاءه بملاعقي، أنا أراه !، ينام في سريرنا على نفس الملاءات المطرزة التي اعتاد أن ينام عليها كارم!

كارم ابنها الأكبر، لم يعود مطلقا من بوتوكارى، فقط عاد الزوج والابن الأصغر لأنهم اختاروا الهرب عبر الجبال، وعاش الابن الأصغر كمال مع الأسرة لفترة قصيرة، سافر بعدها إلى هولندا للبحث عن عمل، فالكثير من الشباب يهاجرون، ولا يرغبون في العودة مطلقاً (في السنوات القلية الماضية هاجر ٨٠٠٠٠٠ شخص البوسنة إلى مائة دولة أجنبية مختلفة) .

زوج زينتا لا يعمل رغم أنه ضخم وقوى البنيان ويستطيع أن يمارس أي عمل، يحصل من الدولة على ٣٤٥ مارك بوسني شهريا يدفعها لعشائه!.. عدة سنوات قضاها جالسا على مقعد بدون مساند بجوار الدفاية، ولا يقول شيئاً على الإطلاق، لا يحاول أن يجد عملاً أو يتخذ قرارات.. زينتا عليها أن تدبر كل شئ.. ابنتهم البالغة أحد عشر عاماً تجلس بجوار أبيها، لا تنطق أيضاً، ولا تتحدث مع الجيران، وليس لديها ما تقوله لأصدقائها في المساكن، ولم تتكلم أبدا في المدرسة، منذ ذلك الشهر يوليو قالت شيئاً ما بصعوبة!، كان عمرها أحد عشر عاماً ولايزال عمرها يبدو هكذا، وجهها خالي من أي تعبير، تستمع فقط إلى القصص التي ترويها أمها والجيران.

فوجوستشا مدينة النساء !.. النساء لا يعملن، يتعاطين حبوبا مهدئة، وقد أنشأن جمعيات متنوعة.. زينيتا هي رئيسة مجلس أمهات سربيرينتيشا، الأمهات لهن مواقعهن الخاصة على شبكة الإنترنت التي مولتها منظمة غربية.. بعد مضى شهر من إعلان الإتحاد نظمت النساء مظاهرات ينددن ويهتفن:

أين أبنائنا؟! .. هل يمكن أن نعرف كيف نعود إلى هناك ؟!

كيف سنتملك أراضى؟.. ما العمل الذي سيعطينا الصرب إياه؟

كيف نسمح لأولادنا أن يعلمهم مدرسون قتلة؟!..من سيتزوج بناتنا؟!

تقول الأمهات من سربيرينتيشا :

نريد العودة لوطننا، ولكن ليس بالطريقة التي قررت في

دايتون، وطننا هو البوسنة وليس جمهورية الصرب.. سنعود حين تكون قواتنا واقفة معظم الأوقات على الدراى نا.

رغم ذلك تتواصل الحياة اليومية في فوجوستشا، ويتزاور البعض أحيانا صباحاً، وأخرى بعد الظهر، ليتحادثوا في همومهم المشتركة.

جارة زينتا القريبة التي لم تعد شابة، لها زوج وأربعة أبناء وأخان ولحسن الحظ فإن لها ابنة.. الابنة ذكية وتجيد القراءة وترغب في الدراسة، لكن الأم لا تملك مالاً من أجل ذلك، فبدون رشوة تدفع لن تجد فرصة للالتحاق بمدرسة جيدة.. الجارة في البلوك المجاور وعمرها ٤٠ سنة، لديها ثلاثة أبناء، الأكبر ١٩ سنة والأوسط ١٧ سنة والأخير ١٥ سنة ، كما يوجد زوجها وأخوته وليس لديها بنات، وفي الوقت الحاضر تقوم الزوجة من نومها ساخطة حانقة على ميلاد يوم جديد!.. الجارة في الطابق الأرضي لديها ابنان وتود أن تدفنهم، وترجو أن تكون مقابرهم في بوتوكارى، ولكن الأهم أن تجد عظامهم أولاً! وعظام زوجها أيضاً.. سوف تُبنى مقبرة في بوتوكارى، ونصب تذكاري حتى لا ينسى أحد وللأبد ما فعله الصرب بالمسلمين .. أما الصرب المحليين فلا يريدون بناء مقبرة للمسلمين، بل يريدون بناء كنيسة أرثوذكسية كبيرة. تقول إحداهن:

- ذلك ما سمعته من النسوة الأرامل الجيران عندما وصلت سربيرينتيثا للمرة الأولى بعد الأحداث الدامية .

وتقول أخرى :

- سمعت من ينادي عليّ باسمي في الشارع من بعيد، ولكني لم ألتفت، فأنا خائفة من الحديث مع أي شخص هنا.

وتقول أم الأبناء الثلاثة:

- حين كنت ذاهبة لمنزلي، وبالقرب منه وأنا أقطع الطريق لاحظني شخص ما من النافذة، وخرج أولاد من منزلي والتقطوا حجارة يقذفوني بها

وتواصل حديثها وهي تريد أن تتناسى الحقيقة:

- فتحت لي الباب امرأة ترتدي فستاني!، فاعتراني الخجل، وأخذت أصرف بصري عنها للدور الأرضي ولأعلى.. قادتني إلى المدخل وكأنها تريد أن تريني شقتي وتريد مني شرائها، وفي غرفة نوم ابني ذكرتني بمن أنتصر في الحرب! ولمن تكون مدينة سربيرينتيثا ؟!.. شكرتها بأدب وغادرت المكان .

نفس الشئ وقع لـ موبينا زوجة الطبيب البيطري، فقد ذهبت حين وصلت براتانيتثا إلى منزل والديها ولم تتمكن إلا من كلمة شكر قالتها وغادرت!

أما زوج زينيتا فسأل موبينا فجأة :

أليس زوجك يدعى حسن ؟! .. تريدين معرفة كيف مات؟!

# الحرارة

سريبرينتشا التي لا ترغب موبينا في الذهاب إليها.. يموج سكانها في هدوء في صيف شديد الحرارة، سكانها الذين يبلغون الآن خمسة عشر ألف نسمة.. النساء فيها زهدن في العناية بمظهرهن والرجال لا يهتمون بإصلاح هندامهم، ولا يرتادون صالونات الحلاقة!.. بها منازل ومباني سكنية تحوى بلوكات شقق ومدارس، وعلى الهضبة كنيسة أرثوذوكسية، معظم السكان يجلسون خارج منازلهم لا يفعلون شيئاً سوى التحديق!، فما كان بإمكانهم أن يفعلوه قد فعلوه، ولم يكن سوى قطع الأخشاب من الغابات المحيطة وجمعها في أكوام من أجل الشتاء.

خمسة عشرة ألف نفس ولا يعمل في وظائف سوى ألف فقط، معظمها بالقرب من صربيا،ويحصلون على عشرة ماركات ألمانية، أجر كل يوم من العمل الشاق.. وهنا في سريبرينتشا لا توجد مصانع، فقط في بوتوكارى مباني لمصانع خاوية!

أربعة الآف هم السكان المحليين وأحد عشرة ألف قادمون من

سراييفو، فوجوستشا، ألجاس، دونجاى فاكون، باجرجنو.. كان في سربيرينتيشا خمسة مساجد يتميزوا بلونهم الأبيض، ومنذ خمس سنوات كان لا يزال هنا مسجد قائم، والآن لا يوجد حتى أطلال مسجد بل ولا حجر!..الناس يجلسون، يحدقون!، لا ترى بسمة على شفاه! حتى الحديث مع بعضهم البعض لا يرغبون!.. ففيم سيتحدثون؟!.. بإمكانهم الذهاب للسوق الشرقي لإلقاء نظرة، ولكن لا أحد يذهب هناك، السوق عبارة عن كشكين في وسط البلدة، هادئ، معروض فيه بعض الخضروات من

الخس الذابل والخيار البائس!، ولا يرتاده أحد، فقط بعض الكلاب ترقد في تكاسل من أشعة الشمس القاسية وسط تقاطع الطرق.. وبعض الأطفال يجلسون في طريق السيارات دون عناية من أحد، حتى الدجاج البعض منه على طريق الأسفلت كما لو أنه لا خطر! على ملاعب المدرسة التحرك الوحيد في سريبرينتيشا، فبعض الصبية يلعبون الكرة وبعض البنات المراهقات يجلسن في ممر بين دكاكين للتسلية، ولكنهن لا يلعبن، فلا توجد نقود من أجل العملات المعدنية الخاصة بالألعاب.

في ظل الاتحاد الفيدرالي لـ البوسنة والهرسك، يريد بعض الناس العودة إلى منازلهم التي كانت قبل الحرب، ولا يصرحون بذلك إلا حيث لا يسمع أحد، فهم يرون أن قرار العودة في حاجة إلى صحو للضمير، لكنهم لن يعودوا ويعزون ذلك إلى السياسة، فالسياسيون الصرب المحليين يحذروهم، فالعودة تعنى الهروب والخديعة..

لا عودة، ابقوا هنا فسوف تتحسن الأحوال يوما ما!..

## نرجس برى

لا تزال موبينا في انتظار لقاء قريب لزوج زينيتا، تريد أن تعلم كيف لقي حسن مصرعه.. عندها الآن أكثر من منزل في براتانيش، منزل يطل على البلدة ومكون من عدة طوابق، بناه حسن من الطوب الأحمر، عندما كان طفلهم الثاني على وشك أن يولد، كان يرغب أن يعيشوا في راحة في شقة وسط البلدة، قام بعمل حوائط عالية وأسقف، وانتهى من تركيب الأبواب والمنافذ، ولم يمهله القدر لتركيب الأرضية..

أبناء موبينا علموا منها ما حدث لوالدهم حيث تأتى بعض الأرامل للزيارة.. فـ موبينا ترى أنه ليس من العدل ما تفعله النساء في فوجوستشا حين يذهبن على الدوام بالقرب من بوتوتشارى ويتحدثن في حضور الأطفال، فلماذا يحملن الأطفال بأشياء هن غير قادرات على حملهن ؟!

تقول موبينا ونحن نسير صوب منزلها ذو الطوب الأحمر :

- من الأفضل للأطفال أن ينسوا !

ولكن هل من الممكن فعلا نسيان الأحداث هنا أوهناك في فوجوستشا ؟!..

فى فوجوستشا تود الأقليات الهرب، ولكن لايوجد مكان يهربوا إليه!..

ونحن خارج المنزل ذو الطوب الأحمر، وبداخله امرأة صربية صماء بكماء مع أطفالها، وزوجها غير موجود، ليس من المحتمل أن يكون بيننا حديث معها ورغم ذلك فهي خائفة.. وفي الحديقة بجوار حائط المنزل المجاور (حطام منزل والدي حسن) أخذت موبينا تقطف زهور النرجس، وهي تشرح للصماء أنها هي التي زرعتهم، وتستمر في قطف الكثير.

- لن نعود إلى منازلنا!

هذا ما قالته موبينا أثناء سيرنا عائدين إلى وسط البلدة، وتستمر في الصياح:

- لقد أثار الصرب الحرب، وتخلصوا منا، بلدة بعد بلدة.. إذا قُتل الآباء والأبناء فمعنى ذلك أنه لا رغبة في عودة أراملهم.. ضجيج العودة إلى الوطن هو أحد الأساليب التي يتلاعب بها العالم الخارجي..

سياسيون يكررون دوما ينادون أن يغير الجميع فكرهم وأن يعيش الصرب والمسلمون والكروات معا مرة أخرى في بوسنة متعددة الأعراق، مجرد ضجيج للعالم الخارجي، وهم لا يستطيعون الإقامة في براتانتش بشكل دائم.. أبناء موبينا يسألوها أحيانا عن التفاصيل، مثل : ما طول المسافة التي سنمشيها عبر الجبال من سربيرنيتشا إلى سرابيفو؟

- ١٥٠ كيلو متر، ربما مشى أبوكم إليها منذ خمس سنوات ولا يزال!

تنوى موبينا أن تشرح لأبنائها قريبا، لماذا يجب عليهم الذهاب إلى تازلة لأخذ عينة من دمائهم، قد يسألون ما هو الـ D.N.A؟ وما هي الكروموسومات، ولماذا نحمل نصفها من الأب والآخر من الأم؟ ولماذا تبقى فترات طويلة في العظام؟

كثيرا ما تفكر موبينا في زوج جديد في مقارنة مع نساء يعيشون في فوجوستشا، هى تعايش هذا الفكر فترى أنه صعب على امرأه أن تعيد بناء منزل بمفردها، ومن الصعب أن تربي أبناء بمفردها.. والقرآن واضح في ذلك فالأرملة يجب أن تتزوج مرة أخرى، وتسأل موبينا : ألست أنا أرملة؟!

تمسك موبينا فرع من النرجس وهي تعد المسافرين داخل الحافلة، وهكذا تبدأ الرحلة إلى سراييفو.. كان قدومي شيئاً جيداً، فأنا الآن أرى كل شيء وقد أصبح واضحاً، لا يوجد شئ تتعجب له، أنها لم تعد براتاناتشى بعد الآن.

## سعادة

في ذلك الشهر يوليو، وقف زوج زينيتا ينتظر خارج بلوك الشقق في فوجوستشا.. وبعد أن حيا موبينا مباشرة أخذ يقص عليها ما حدث :

مشينا جميعا عبر الجبال

هل ذهبت عبر بلجيم؟

نعم..هناك أنا وابني الأصغر انفصلنا، على أمل أن يبقى أحدنا على الأقل حيا، وتواعدنا ألا يستسلم أحد..هل تعلمين ماذا فعل الصرب برجالنا؟

أعرف.. صلبوهم

سرنا في اليوم الأول دون أن نصادف مشاكل، وكنا نسير على مهل حذر، وفي اليوم الثاني وقعنا في كمين صرب في مكان ما أعلى كرافيتشا، وبكل حماس ذهب الفتيان واضعين في أفواههم قنابل يدوية!.. دوى انفجار، تبعه آخر، مذبحة مروعة وحشية.. فعل حسن شيئاً مختلفاً عن الآخرين، وقد وضع القنبلة في حزامه.. ثم جلس وساقيه تطايرت قريبا من جسده.. وهذا ما كان. وبعد صمت قليل سألت موبينا:

وماذا عنك؟.. كيف بقيت على قيد الحياة؟!

تحت الجثث!.. لكن أي حياة تكون هكذا؟!.. ابني الأصغر سافر خارج البلاد أما الأكبر.. ...

لا تبكي.. أنا أدري.. أنت محظوظ عن غيرك.. وأنا سأكون سعيدة لو علمت أن كارم قد فجر نفسه بقنبلة يدوية..نعم فالروح ستشعر بألم أقل

كارم بقى في المؤخرة في بوتوتشارى، دخل إلى مبنى المصنع.. هذا كل ما أعرفه.

## حلم

المرأة يمكنها العيش بدون رجل .. هذا ما قالته موبينا في اليوم التالي، ثم تستكمل قائلة :

- وأنا سوف أعيش هكذا..

كان حسن يزورها في منامها وتراه في أحلامها، وفي الليلة الماضية رأته يبدو للحظه ثم أخذ في الذهاب بعيداً، أرادت أن تجرى وراءه ولكن قدماها تسمرتا فلم تقو على خطوة واحدة !

## الأرملة

الربسكو (سراييفو الجديدة) وسربكا آلاى دزا هما حدّا العاصمة بالنسبة للإتحاد الفيدرالي لـ البوسنة والهرسك وهما مناطق حكومية.. تمتلئ سراييفو بالمسئولين، كأي مكان في يوغسلافيا السابقة، وأيضا لا ترى فيها بسمة على شفاه!.. مئات المقاهي، موسيقى، ضجيج، زحام على المنتزه، ونقود!.. شباب يرتدون ملابس ذات ألوان بداخل نوادي تكنولوجيا، طلبة في قاعات المحاضرات، نساء أنيقات ذاهبات للتسوق، رجال أعمال في سيارات فاخرة، أجانب قادمون للسياحة ( أكثر من ٥٠٠٠٠ هنا)، محالون على المعاش في الميادين، حفلات موسيقية، كتب جيدة (غالية الثمن) بنوك ألمانية وتركية مزودة بـ نظم بنكية حديثة، أفلام أمريكية، ويسكي سكوتشى، مستحضرات تجميل فرنسية، شيكولاتة ألمانية، حلى صغيرة صينية، ويوجد مطار، هواء نقي منعش.. وهنا في

الجانب الآخر من الطريق ولكن في جمهورية الصرب، لا يوجد شيء، لا سينما ولا مسرح، ولا صناعة ولا تصدير، تأثيرات عدة سنوات من العزلة عن العالم وحظر للتجارة مع صربيا فرضها الغرب عليها أثناء الحرب، فلا يوجد محل مناسب، فقط بعض كليات الدرجة الثانية، وإن كان الناس لا يملكون ما يمكنهم من الدراسة فيها، تصل البطالة إلى نسبة ٨٠% بين الرجال وتكاد تكون ١٠٠% بين النساء.. اقتصاد ضعيف، سوق سوداء، جرائم، فساد، وعنف أُسري (فى سربكا آلاى دزا كانت آخر الحوادث عشرة قتلى داخل الأسر، منها قتل عمد للأطفال والفاعل والديهم! أزواج قتلهم الزوجات، أم يقتلها ابن أو ابنة)، مخدرات، فودكا، كآبة، إخفاقات، طلاق، انتحار (غالباً برصاصة في الرأس)، عراك مع الجيران، جنون، جوع، زحام شديد، حياة في عشش أو مراكز عامة، أطفال يعانون من الأنيميا، أفواه بلا أسنان، أحذية ممزقة، بطالة، عجز جنسي، أمراض وعدوى،دعاوى قانونية وشكاوى ضد المسلمين، انتظار من أجل المساعدة التي لم تأت من أي مكان.. كل ذلك ذكره دانيلو ماركوفيتش رئيس مركز المساعدات الاجتماعية في سربكا آلاى دزا

على من يلقى اللوم؟!.. هذا ما يسأله ماركوفتش.. الحرب!.. من السبب في حدوثها هنا؟.. العالم الجديد هو من يصدر الأوامر.. فالاتحاد السوفيتي قد انتهى، وبعد ذلك جيثنا، فـ يوغسلافيا القديمة الرائعة كانت رابع أضخم جيش في العالم!.. كنا ننتج أسلحة، ونتنافس على الصناعة العالمية منها، جعلونا نحارب بأسلحتنا داخل وطننا وأصبحنا في حاجة إلى مزيد من الأسلحة منهم..

العالم حولنا إلى همج! بعد أن كنا ناس عاديين، لم نكن ندافع إلا عن

منازلنا، نسائنا، وأطفالنا.. نعلم ما حدث في سربيرينتشا، قُتل الناس فيها، وصرب كثيرون أيضاً قد قُتلوا في سراييفو أكثر من المسلمين في سربيرينتشا.. يجب أن ندرك بدون نفاق أن اتفاقية سلام دايتون مجرد كلام .. مقابر جماعية، محاكم، كل ذلك بعضُ من كل.. اعتاد الناس الحياة في سراييفو، وحين هربوا لم يهربوا بعيداً بل فقط إلى مئات أمتار قليلة، إلا أنهم أصبحوا لاجئين .

ستوجانكا -عمرها٣٦-(كأحد النماذج) لديها طفلان، لم تكن المرة الأولى التي التقينا بها، اعتادت هي وزوجها أن يعيشا قريبين جداً من وسط المدينة، ونوافذهم تطل على الجامع في البلدة القديمة، كانت تعمل مساعدة في محل، وزوجها عامل في مصنع، كانوا في المدينة عندما بدأ الحصار في عام ١٩٩٢، وبعد عدة شهور قررا اختراق الحصار إلى أهلهم (الكثير من الصرب ظلوا في سراييفو حتى النهاية أحياء وأموت).

نلتقي اليوم مع ستوجانكا مرة أخرى ،تمشى بطول شارع سراييفو ،ورغم ظلام الشارع إلا أنك تراها أنثى ضعيفة وهشة كما بدت لنا.. لم تعد تعيش في سراييفو الآن، جاءت فقط من أجل زيارة سريعة، أصبحت أرملة، فحين هربوا من الحصار ووصلوا إلى أهلهم، تم أخذ زوجها مباشرة إلى الجيش وأجبروه أن يطلق النار

على المدينة التي هرب منها، وقتل بشظية (قتل صرب كثيرون وكانوا عادة في المقدمة فأكثر من نصف الصرب مثل المسلمين قتلوا في الحرب، ومعظم المسلمين كانوا يقتلون برصاص في خلف الرأس أو بين العينين ).. وبسبب زوجها المتوفى كانت تحصل على مائة مارك بوسني شهريا من جمهورية الصرب وهي لا تكفى لأي شيء، الأولاد

يكبرون وهم يعيشون الآن في منزل شخص ما آخر، منزل مسلم قد هرب أهله، وقد سجل مؤخرا وثائق ملكيته للمنزل، وبالرغم أن المنزل في جمهورية الصرب إلا أن المسلمين يريدون العيش فيه مرة أخرى.. هددت ستوجانكا بالطرد، وهي تبكي قائلة :

- هم قتلوا الكثير منا!.. كيف نستطيع العيش بجانب بعضنا البعض بعد كل ذلك ؟!.كيف يمكن أن ينظر كل منا في عيون الآخر؟!.. الناس لها مشاعر وليس حجارة.. أليس كذلك؟! أين يمكن أن آخذ الأولاد الآن؟.. إلى الثكنات؟!.. ماذا كان الهدف من الحرب؟!

الشقة التي ترى منها ستوجانكا المسجد ليست ملكها، وليس لديها شئ لتطالب به.. سوف تذهب للثكنات، وإن لم تستطع أن تتحمل هناك، فسوف تذهب إلى مستشفى نفسي، هم يهربون من المدينة في خوف من المسلمين، هذا ماتتذكره، أصبحت ضعيفة الذاكرة، كانت خائفة من البرد، ومن الجوع، ومن القناصين الصرب، لا تستطيع التحمل، فقناص سوف يطلق عليها رصاصة.. لمدة ثلاث سنوات والمدينة تحت حصار من الصرب، مصدر المياه لا يعمل، لا يوجد غاز ولا كهرباء، هم يطلقون النار على الناس إما بين العيون أو في أي مكان من الجسم.. طوابير طويلة من الناس ينتظرون من أجل الماء أو الخبز.. اليوم أصبح من الصعب زيارة المدينة، ومن الصعب إن تجلس في مقهى بين أسر الضحايا، بين أناس يحسون بالكراهية، أنه لمن الصعب أن ينظر أحد للآخر في عينيه.. تطلب قهوة وتبلغ عن جريمة؟!!.. رجال من الصرب لا يأتون إلى سراييفو، فقط يضعون مقاعد بجانب طريق محفور في جمهورية الصرب، يجلسون، يضعون أيديهم على ركبهم

ويحدقون!.. القليل فقط من الصرب وهم من النساء في الغالب يزورون المدينة حين يحل الظلام.. بعض الأرامل من الصرب يصنعون حياة في شوارع سراييفو في المساء!.. ويقول رئيس مركز المساعدات الاجتماعية بصوت هامس :

هن لديهن أولادهن يحتاجون إلى طعام.. فهى تواسينا ولكن جمهورية الصرب أبداً لن تساعدنا.

## الضواحي

نحن الآن في سوكولاك بجمهورية الصرب وتبعد ٥٠ كيلو متر شرق سراييفو (على الطريق إلى سربرينيتشا).. بعد الظهر والشمس ملتهبة ولا مفر إلا ظلال الأشجار..الناس مستلقون في أزواج وجماعات، راقدون على العشب الأصفر الطويل فلا نكاد نراهم، لا يتحركون، معظمهم يرقدون على بطونهم ووجوههم تجاه الأرض، ربما يكون ذلك أكثر راحة لهم، ولا يتكلمون.. الجالسون على المقاعد الخشبية الطويلة أيضا صامتون، مظهرهم يدل على الفقر، شعرهم ملوث بالشحم، أفواه شاغرة من الأسنان، أحذية ممزقة، وأقدام عارية، يجلسون بجانب بعضهم البعض كأنهم في سينما!، وتمضي ساعات قلائل وهم يضعون أيديهم على ركبهم، يحدقون فقط وبدون حركة على الإطلاق.. توجد أشجار ومباني قليلة (يتبولون داخلها)، توجد فتحة في السياج من جانب واحد في الحديقة العامة، وبوابة حديد مفتوحة على الجانب الآخر، وما وراء البوابة منظر جميل، بعض الهضاب المنخفضة ومساحات واسعة مفتوحة هي ضواحى سوكولاك وما وراء الفتحة التي في السياج توجد

بعض الثكنات الرمادية، على الأقل أثنى عشرة بلوك طويل، وغسيل منشور كما لو أن شخصاً ما يعيش بالداخل، ولكن لا نرى أحد، بل نذهب لنتأكد فلا نرى بالفعل أحد. فقط هم يجلسون كما رأينا ويحدقون! كل شخص عنده فيلمه الشخصي يستحضره في نفسه، أحد الأشخاص يصيح أو على الأصح يولول، وآخر يضحك وهو ينظر في مرآة صغيرة وشخص يضرب رأسه بعنف بقبضته ويبكى، وآخر يتبول على النجيل، وغيره يتبول في ملابسه الداخلية ويسيل البول أسفل سيقان سرواله.. وذاك يمارس العادة السرية، والتي تقف بأعلى المقعد الخشبي هي امرأة عمرها ٤٠ سنة أو أكثر تجرى نحونا وتمسك بى من كمي طالبة عشاء، منذ سنوات وهم على تلك الحال، تقول أنها جائعة، وامرأة عجوز أخرى تأتي نحونا لتقول أنه لا بزورهم أحد أبداً.. لا أحد يتحدث إليهم، ليس لديهم أحد، يأتي أحيانا أحدهم في رداء كهنوتي أبيض ويعطيهم حبوب، ويصيح فيهم ويدفعهم هنا وهناك ثم يمضى بعيداً.. الحياة الواجبة لهم هى مستشفى نفسي !

أخذت الشمس في الغروب، وأصبح الجو بارداً.. وبدأ الناس على الجانب الآخر من السياج يظهرون في ثكنات خشبية رمادية .

# طهاة

في الثكنات الرمادية رأينا النساء من خلال الفتحة التي في السياج يعدون قهوة بعد الظهر ويقدموها للرجال.. جلس الرجال على الأرضية المحيطة بالمبنى تجاه الحوائط الخشبية يحتسون القهوة ويبدءون في الحال في شرب راكيا يصنعوها بأنفسهم فلا مجال لأحد أن يشتري كحوليات إلا نادراً.. الأولاد يلعبون كرة السلة ويلهون.. النساء في الخارج ينشرن الغسيل أو يأكلن أو يطعمن الخنازير.. وحظائر الخنازير قليلة جدا هنا، ومعظم النساء كن جالسات حين كنا نمر من الفتحة التي في السياج، كنا نريد أن نسأل من يكن؟! إلا أن شيئاً غريب حدث، فقد طالع فينا الرجال، ثم نظر بعضهم إلى بعض ونهضوا من مجلسهم، وكان ذلك ملفتاً لنا أن نرى كيف يرتدون: سراويل مرقعة ومدلاة، أثواب فضفاضة وأحذية متهالكة، فوضى في مظهرهم.. الأشخاص الذين يحتسون القهوة خارج أبوابهم ينهضون أيضا ببطء ويدخلون، والبعض يحتاج السير لمسافة ٢٠متراً أو ٥٠ متراً حتى يختفي، هكذا لا يستطيعون أن يخفوا رعبهم بسهولة فقد فزعوا منا كما المخلوقات في الغابة!، يفقد البعض أحذيتهم على الطريق وهم يهرولون، مخلفين أعقاب السجائر التي لم يتمكنوا من إطفائها، فتترك دخاناً معلقاً بالهواء، ونسمعهم وهم يديرون مفاتيح الأبواب داخل المباني.

ما الذي يخيفهم؟!.. إنها كاميراتنا!، فالرجال في جمهورية الصرب يتحاشون التصوير ويخفون وجوههم كلما ظهر أجنبي، بل ويختفون وكأنهم يتبخرون!.. ويستطيع من لا يمكنه المجيء إلى ضواحي سولاك

أن يرى ذلك من خلال محطة التليفزيون الأرضية لجمهورية الصرب، ويمكن ذلك في سراييفو.. يزور صحفيون أحياناً قرى صربية وبلدات ليروا إلى أي مدى وصل الحال بالناس.. على الشاشة ترى الناس في شكوى دائمة، ولا ترى الرجال!.. فالرجال المحليين خائفون من شخص ما يتعرف عليهم ويبلغ عنهم النواب العموميين في المحكمة الدولية.. سيخبرهم أنه يوجد رجال هنا قد لعبوا كرة قدم بجماجم المسلمين !، أو أجبروا رجالا مسلمين أن يمزقوا خصيان بعضهم البعض بأسنانهم.. الرجال الصرب يرتجفون لاعتقادهم أن النساء المسلمات سوف يتعرفن عليهم، فهن يتذكرن وجوهم ورائحتهم الكريهة وعنفهم.. فالكل في البوسنة يعرف أن المحكمة الدولية في الهاجيو لديها قائمتين للمجرمين المطلوبين: قائمة معلنة وأخرى سرية.. والمعلنة تشمل رادوفان كارادزيتيش قائد الصرب المحليين أثناء الحرب في البوسنة، راتكوملاديتش الذي كان وقتها رئيسا للجيش، وسلوبودان ميلوسيفينيتش رئيس يوغسلافيا الذي عُزل وقبض عليه وأخذ إلى الهاجيو، وسوف يجيب ليس فقط عن جرائم البوسنة بل أيضا عن جرائم كرواتيا وكرسوفو.. أما القائمة السرية إذا كانت بالفعل موجودة فتشمل الكثير من رجال الصرب وعلى نحو محدد بعض الكروات وقليل من المسلمين أيضا الآن مطلوبون للإعدام!.. هل من الممكن حقا أن تقتل عشرات الآلاف من الناس؟!.. مهمة ليست سهلة!.

الرجال في جمهورية الصرب الذين يوافقون على الحديث معهم، يقولون أنهم أثناء الحرب كانوا طهاة، وحتى الأشخاص الذين هم من صربيا وجاءوا هنا يقولون ذلك أيضا، ويكررون ذلك مراراً وكانهم

يصدقون ما يقولون! ثم ينسحبون ويختفون! قدمت النساء لنا فناجين القهوة ونحن نجلس على الأرض، هن صرب لاجئات من سراييفو، هادزاى تشاى، وراج لوفاك.. ويوجد الآن مسلمون يعيشون هنا، فاتفاقيات دايتون تضمنت تلك المدن في الإتحاد الفيدرالي.. وطرفا الإتحاد الفيدرالي في بوسنة اليوم والهرسك، هما جمهورية الصرب والبوسنة والهرسك، لذا توجد قوتان للشرطة، جيشان، وزارتان للصحة، للتعليم، للمالية.. كما يوجد ثلاث مجتمعات: صرب، مسلمون (بوسنايك وكروات) ومراقبون من الأمم المتحدة معهم قوات دولية من جميع أنحاء العالم، يسمونهم قوات الاستقرار تشتكى النساء الجالسات خارج الثكنات من عدم وجود عمل، لا شيء يؤكل ولا نقود، ضغط الدم عندهن مرتفع، أمراض قلب، بول سكري، كولسترول عالي، سيقان متضخمة، كوابيس مناميه، وأعصاب ممزقة.. والرجال لكل فيلمه الخاص، يصيح أحدهم، ويصرخ آخر، أحدهم يضحك ويضرب رأسه بقبضتيه ثم يبكي.. شجار دائم بالسكاكين! بين الفتيان يمزقون بعضهم البعض أو يركلون امرأة عجوز فتبدو فيها كدمة زرقاء من أثر الركلة، ثم سيارات إسعاف وشرطة.. وأسباب العراك: شخص يضع حذاءه في المكان الخطأ، يعطس أحد بصوت عال.. يفتح أحد النافذة في وقت غير مناسب.. وفجأة يحدث قتال.

النساء تسألن : لماذا كانت الحرب؟! ماذا فعل أبناؤنا ليقتلوا؟!.. ثم يجبن: من أجل لا شيء!.. من أجل خوف، تشرد وإراقة دماء، من أجل عيش فالثكنات.. كانت لديهن منازل قبل الحرب بها فريزر في كل منزل ملئ بكل شيء، والآن أواني الطبخ خاوية مات سلوبودان ميلوسيفيش في

مارس ٢٠٠٦، يقولون عنه خائناً فقد وقع اتفاقية في دايتون بأمريكا بموافقة على جمهورية صرب في البوسنة، ولكنه كان لديه اتفاقية مختلفة مع الناس ،كان من المفروض أن نأتى في صربيا متحدثين مع إخوتنا الصربيين، ذلك ما قاتلنا نحن من أجله .

النساء يقبضن على رؤوسهن قائلات :

يريدون منا أن نعيش مع المسلمين مرة أخرى ولكن ذلك مستحيل!

(اتفاقيات دايتون تقول أن كل شخص له حق العودة إلى منزله قبل الحرب، الصرب تجاه الاتحاد الفيدرالي، والمسلمون تجاه جمهورية الصرب، لن تكون هناك مناطق طاهرة عرقياً كما يريد الصرب).. يسألنا نساء كبار السن عن فولتارين ليدلكوا به مفاصلهم المتوجعة، وعن نظارة يرون بها، أو شيء ما حلو.. وعلينا أن نتحدث معهن قليلا، فلا أحد يزورهن على الإطلاق.. فليس لديهن أحد !.

## الجراج

الشمس على وشك الغروب في ضواحي سوكولاك.. النساء الصربيات لا يزلن جالسات خارج الثكنات الرمادية.. يوجد هنا أيضاً رجل هو ماي سا، قد ظهر من فترة قصيرة ولا يحاول كالباقين الاختفاء!.. جلسنا كلنا نشرب جرعة من راكيا، أخذ يخبرنا دون أن يسأله أحد عن الذي لا يحبه : المسلمون، الانجليز لأنهم مغرورون، الأمريكان لأنهم يكرهون الصرب، البولنديون لأنهم يخونون الصرب دائما .

مای سا من جورازادا، فقد زوجته التي كانت في حافلة نسفتها

قنبلة يدوية.. ونحن لدينا معرفة بهذه الحوادث، فعندما كانت المدينة تحت الحصار الصربي، أراد المسلمون القبض على الصرب كرهائن، وفي الوقت المناسب سمحوا للرهائن بالمغادرة ليلحقوا بأهلهم، ركب النساء الصربيات والأطفال الحافلات، وقبل أن يصل الصربيون إلى جانبهم، اعتدى المسلمون على القافلة، قُتل مائة شخص وربما مائتان (المعلومات ليست دقيقة )كانت من بينهم زوجة مای سا.. وهو لا يستطيع الآن الذهاب إلى الإتحاد الفيدرالي، إلى السلطات المسلحة فجيرانه القدامى هناك سيتعرفون عليه فهو مطلوب!.. لذلك من الأفضل ألا يتحرك من هنا.. يعمل ميكانيكي سيارات ولكن بلا عمل، ولم يبحث عن أي شئ، حين نسأله من أين يحصل على نقود للطعام، يبتسم ولا يجيب..لا يعيش في الثكنات، لا يستطيع أن يتحمل النوم في حجرة هوائها فاسد مع كبار السن الذين يغطون في النوم.. جهز جراج بدون نوافذ لنفسه، وملأ الجدران فيه بصور نساء عرايا، وهو مكان لنومه، يبحث عن زوجة جديدة، مع أنه يعلم أن لا توجد امرأة ستقبل أن تعيش في جراج بلا نوافذ..تسألنا بعض الفتيات في عمر العشرين عاماً، بتعبيرات حزينة إن كنا نؤمن بالمسيح، فبإمكانهم التحدث مع المسيحيين.. لم يذهبن إلى أي مكان منذ سنوات، لم يرو البحر ولا مدينة كبيرة أو أناس آخرين، لديهن فضول ليعرفن شكل سراييفو (تبعد ٥٠ كيلومتر من هنا)..يرغبن في الذهاب هناك، لكنهن خائفات من التحريض في الشوارع..دعونا الفتيات الصرب من ضواحي سوكولات إلى سراييفو، لكنهن رفضن، يقلن : المسلمون يثيرون اشمئزازنا، فهم قتلو الصرب وأخرجونا من منازلنا، فأصبحنا بلا منازل، سوكولاك ليست

وطننا، هي مجرد ثكنات، مكان للمبيت، كآبه.. نتمنى أن نذهب بعيدا عن هنا.. يريدون الهجرة ( أكثر من ٦٠% من الشباب يرغبون في الهجرة ) إلى استراليا، نيوزيلندا أو أمريكا.. يريدون أن يتزوجن هناك.. ليس هنا، فمن سيتزوجن هنا؟!.. مای سا؟!!

واحدة منهن فقط سفيتا، تفكر بشكل مختلف، فهى تريد البقاء في جمهورية الصرب هي ترى أنه واجب على المرأة الصربية أن تتزوج هنا ويكون لديها طفل ويفضل أن يكون أبناً، فالدولة تحتاج أبناء، ولا يعيش المرء من أجل المال وحده، وهي تقول: دعا سفيتا تعيش فقيرة لكن في وطن وليس بين غرباء، فربما مع الأيام تدبر جمهورية الصرب الأمر لتتحد مع صربيا، في يوم من الأيام سيكون الوضع هنا أفضل.

سفيتا ليس لديها فضول لتعرف كيف تبدو نيوزيلندا، ليس لديها رغبة في معايشة ناس يتحدثون لغة مختلفة.. ربما تتزوج مای سا رغم أنه ضعف عمرها، هي تحب مای سا، فمظهره جيد ولا يشرب أيضاً كثيراً، ولكنه لابد أن يملك منزل.. مای سا يعرف الطريقة التي يحصل بها على منزل وأسرة سعيدة : حرب ! فقط الحرب ممكن أن تغير أي شئ، هو لا يستطيع أن يرى طريقا آخر لنفسه ،. والآن هو ذاهب للتمشية، يحب ذلك في المساءات وهو يعبر الفتحة التي في السياج .

# صخور

على طريق شديد الانحدار من موستار في جبال الهرسك الصخرية، تقع بلدة ينيفيسيجى الصغيرة، وتقع منطقة المحافظ – يطلقون عليها " الملحق " – في وسط البدة، بوسكو باها المحافظ رجل طويل القامة، نحيف، أسمر البشرة من أثر تعرضه للشمس.. رحب باها بنا ودعانا أن ننظر كم هي جميلة بلدته الصربية.. الشمس حمصت الحقول، الطرق خالية، لا يوجد مرور على الاطلاق، لا فترات راحة من الحرارة حتى ولو بعد الظهر.. صخور ضخمة وحجارة.. البلدة فارغة وقاتمة، لم يكن يعيش فيها المحافظ قبل عام ١٩٩٢ بل في مكان مختلف تماما ، الصرب المحليون كانوا الأكثرية وقليل من الكروات، يقومون بإنتاج قطع غيار السيارات، الأثاث، بيجامات، وأطعمة محفوظة.. الجزء الأكبر من البلدة تمتلكه الدولة، وبعض الناس كانت لديهم ملكيات خاصة في الحقل، لذلك كانوا يأخذون إنتاجهم إلى السوق في موستار، ويتسوقون هناك.. مدارس أولادهم أيضاً في موستار.. حافلات تنطلق إلى موستار كل أربعين دقيقة، والآن لا توجد حافلات.. كان التعداد الرسمي للسكان ١٤٠٠٠٠، أما الآن فيوجد ٢٠٠٠٠ ساكن فقط يعمل منهم ١٥٠٠٠ في وظائف، ٣٥٠٠ ليس لديهم عمل على الإطلاق، والبقية أطفال.. المسنون المحالين للمعاش يعانون من تأخير دفع جمهورية الصرب لمعاشاتهم.. يجلسون في الصباح دون حركة، يحدقون حتى وقت متأخر بعد الظهر أو المساء، يستهلكون سعيرات قليلة جداً، فلا يحتاجوا إلى طعام كثير!

نصف السكان في نيفيسينجى ليسوا من أهل المنطقة ومنهم المحافظ باها، لقد جاءوا في ربيع ١٩٩٢ عندما بدأت الحرب في البوسنة، عندما هربوا من قراهم الخاصة وبلداتهم بعد أن حذرتهم السلطات الصربية من أن المسلمين (وأخيرا الكروات) سوف يدمرون منازلهم ويذبحون أطفالهم.. هكذا رحلوا إلى نيفيسينجى.. كبر الاطفال ولا يزالون يعيشون هنا.. في منزل كبير بالقرب من مكتب المحافظ يوجد به نساء فقط أو هكذا بدا لنا، المنزل به عدة طوابق ودرج خارجي، في كل حجرة أسرة : ثلاثة أو أربعة أشخاص في مساحة عشرة متر مربع، أريكتان يستخدمان للنوم ومنضدة صغيرة وأواني طهي قليلة وصورة لكارادزنيتش.. يشكون من ندرة الماء الذي لا يتوفر إلا كل يومين.. الأطفال ينهون المرحلة الابتدائية، ولكن كيف وأين سيحصلون على تعليم إضافي إن رغبوا في ذلك؟!.. كان الأمر سهلا قبل الحرب.

كان المنزل الذي نحن نطالعه الآن ملك لمسلم يدعى هاسو وزوجته سابيرا اللذان ذهبا بعيدا عن سراييفو.. المسلمون المحليون -كما أخبرنا المحافظ- غادروا المكان إلى موستار، كونجيتشى، سراييفو، نيويورك، وسيدنى، ذهبوا ليلحقوا بأهلهم، وكان العالم قد أعلن أن الصرب - كحيوانات مفترسة- قتلوا المسلمين عمداً.

صاحبا المنزل: هاسو كان تاجرا على المعاش عمره ٨٠ سنة، سابيرا كانت عاملة مكتب على المعاش عمرها ٧٠ سنة، عملا باجتهاد، بنا المنزل، ربا أولادهم، وكانوا يتقدمان في السن بهدوء، حتى ذلك الشهر يوليو ١٩٩٢، فبداية جرائم الإبادة للمسلمين كانت في ١٠ يونيو، قتلوا الأغنياء أولاً، ثم الآخرين عشوائياً.. تحدث هاسو - آنذاك -

بالهاتف مع ابنه الذي كان يعيش في سراييفو، ولم يرغب في إزعاجه، فأخبره أن كل شيء هنا على ما يرام، ولكن لم يكن شيء على ما يرام !. وبعد أيام قليلة قرر جيرانهم الصرب إيواء الصرب المشردين، فأخذوا هاسو و سايبرا بعيداً، وفي عام ١٩٩٧ استخرجت جثتيهما، ولم تكن هناك مشكلة في التعرف عليهما، فـ سايبرا تملك نقوداً، ساعة وذهب مطرز في ملابسها، وأقيمت جنازة لها في الجانب المسلم.. ابنة هاسو اتصلت وطلبت أن تسترد ألبوم صور الأسرة.. وحضرت لأخذه، وبتسم السكان وهم يتناقلون الألبوم بين أيديهم.. طالعت الأبنة بنظرة سريعة على منزل أبيها ورحلت! .

## جبال الهرسك

انه شهر يوليو.. اعتاد الناس كل صباح قبل الساعة الثامنة الاجتماع عند مقهى البيج بن في الجزء الشرقي من موستار.. الشمس تدنو من الأرض، الميدان ضيق.. الطاولات المعدنية الصغيرة تراصت بالخارج ولا يزال يدبر أمرها لتختفي عن الحرارة، الناس في المقهى يتسمون يثرثرون، يتصفحون الجرائد، وبعضهم يجرى إتصالاً هاتفياً.. فرصة لقاء بين المعارف، هم جميعاً في سن الأربعين، وبعضهم أقل سنا أو أقل شباباً.. ينظرن قدوم آخرون

الذين يصلون بين الحين والآخر، يحيون بعضهم ويطلبون القهوة .

د.ايواكلونوسكى هنا، بحذاء ثقيل، شورت قطني متين، قميص خفيف، وقبعة من قش .. ياسنا بلوسكيتش -٣٩عاما- هنا أيضاً تجلس مع سنية ملاتش على طاولة واحدة، سنية هي رئيسة اللجنة البوسنية

للأشخاص المفقودين لمقاطعة موستار، وياسنا نائبتها.. يتحدثون عن المكان الذي نريد الذهاب إليه، وما هو المتوقع أن نجد فيه.. نحن ذاهبون إلى جبال الهرسك.

أعطت سينة إشارة للرحيل، رغم أن كشافي الكهوف والمغارات الذين طال انتظارهم لم يصلوا بعد من سراييفو، وبالتأكيد لن يأتوا! فيبدو أن أحدهم قد أساء الفهم وخلط المواعيد أو فشل في اتخاذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب، ففي البوسنة لا تندهش! فكل الأمور متساوية.. يجب أن نتجه جنوب شرق موستار في جمهورية الصرب، وفي الطريق إلى قرية صربية انضم إلينا بعض الجنود الأسبان من القوات الدولية لحمايتنا في حالة الخطر نتجه الآن يساراً بعيداً عن الطريق العام الرئيسي إلى أسفل طريق ممهد حصواته بيضاء، ثم بدأنا في الارتفاع تدريجياً بمشقة في الطريق شديد الإنحناء لمسافة ١٠ كيلو متر على الأقل.. الجبل ضخم، والنباتات متناثرة فيه، والأرض محترقة، وتوجد أحجار رمادية كبيرة متوهجة من أثر النيران.. وعلى جبل باستثر المستوي السطح تقع عيناك لأول وهلة على الأشجار ومزرعة يدهشك كيف يعيش الناس فيها.. خرجت امرأة عجوز على الطريق ترفع يدها لتحجب الشمس عن عينيها وتحدق فينا، فمن حقها أن تندهش لرؤية قافلة من السيارات واللوارى تاتى إلى مكانها الموحش.. بل ربما تكون اندهشت أيضاً لمرور ٩ سنوات.. هل يأتون بالنهار؟ (كما فعلنا) أم سيخفون جرائمهم في الظلام ؟!.. مررنا على حظيرة وسرنا بالسيارة داخل الغابة.

# الجيران

أتمت ياسنا دراستها للقانون وتزوجت حسن ( هو نفس اسم الطبيب البيطري زوج موبينا ) وأنجبا ابن عام ١٩٨٧، وقبل عام من أحداث ١٩٩٢ أتم حسن الثلاثين من العمر وأنجبا ابنة عام ١٩٩١..حسن عالم اقتصاد، كان رجلاً ناجحاً له دخل ثابت ومنزل جميل، زوجته ياسانا لا تعمل فالأفضل أن تكون مع الأطفال، فالأطفال يحتاجون أمهم طوال الوقت.. منذ سنة أو ربما ستة أشهر قبل الأحداث شعرت ياسانا بقلق، فالجنود الصرب كانوا يطلقون النار في الهواء بشوارع موستار، يهددون الناس بالكلام، ويهينون النساء.. منزل عائلة بلوسكينش التي تنتمى إليها حماة ياسانا كان في سيهو فينا ، وتلك المنطقة في موستار أغلب سكانها من الصرب الذين جاءوا من نيفيسنجى.. في الربيع طرق الجيران الصربيين باب ياسنا وطلبوا منها استعارة بعض حقائب الملابس، لقد هربوا إلى نيفيسنجى، بعد أن انفجر خزان بترول بجانب ثكنات الضواحي الشمالية .

كان اليوم الرابع من إبريل..الفوضى،الخوف،الهلع بداية الحرب..لن تسامح ياسنا جيرانها أبدا!..استعاروا منها حقائب السفر، وأوصوها: ياسنا لا تذهبي إلى نيفيسنجى، لن تكوني بخير هناك، فقد احتلت القوات الصربية المدينة ثم بعد ذلك هرب الجيران إلى نيفيسنجى!!

حسن وياسنا وابنيهما عمار وآيلا ذهبوا في سيارة خاصة إلى خالة تعيش بالقرب منهم، وكان معهم أخو حسن وزوجته وأطفالهما الثلاثة.. وهناك كان المسلمون قد استعدوا للرحيل، وعليهم أن يعبروا الحدود مع

الأطفال إلى مركز اللاجئين الكروات.. وكان لا يسمح لأي رجال لائقين للقتال بعبور الحدود.. كانت ياسنا جاهزة للسفر إلا أنها كانت لديها هاجس بأنها ستفقد زوجها.. قالت له: سنبقى هنا.. وكان يوما من المحال نسيانه فاليوم في الهرسك وبالقرب من اتفاكانتون، كان البحث عن ١٥٠٠ شخص من المفقودين من بينهم حوالي خمسون كرواتي وقليل من الصرب ، ياسنا وزوجها قررا السفر إلى بربسجيكا، وهي قرية تقيم بها أم حسن، قريبة من نفيسينجى وأكثر أمانا، فكل الناس هناك يعرفوهم، فقد كانوا جيران على كل حال..

سافروا ومعهم أسرة أخو حسن كان عليهم قطع مسافة خمسين كيلو متر عبر حقول وغابات وجبال، وفي الطريق أوقفهم بعض الجنود الصرب، وفحصوا أوراقهم الرسمية، كانوا مهذبين وسمحوا لهم بالمرور.

في بريسجيكا كان الناس يعيشون كما اعتادوا من قبل، يستيقظون ويغتسلون ويصلون صلواتهم، ويقضى النساء يومهن في سقى الماشية وإخراجها إلى المراعى ،. ينظفون منازلهن ويعددن الوجبات.. الرجال مشغولون بإصلاح ماكينة قبل حصاد القمح والجاودر، يذهبون لاحتساء القهوة في المقهى.. في بريسجيكا كان يوجد مقهى ، محل بقاله، مدرسة، وأكثر من ثلاثين منزل تخزين صنعت من الحجارة.. يحيط بالمكان أحجار كثيرة وأشجار قليلة حول المنازل : أشجار برقوق، كمثرى، جوز، والأشجار لم تكن كبيرة ولم تعط الظلال الكافية، لذلك اعتاد الكثير الاختفاء في المنازل، فالطقس بداخلها مقبول، أما في الخارج فالحرارة شديدة، وفي المساء يصبح الطقس شديد البرودة

(تختلف درجات الحرارة هنا بين الليل والنهار والفرق بينهما يصل إلى ٣٠ درجة!)..

يلعب الأطفال الراكت حول ووسط المنازل حتى تدعوهن أمهاتهم للاستحمام ويضعونهم في الفراش.. ويخرجن بعد ذلك للجلوس على سلالم أبوابهن يتحدثن إلى الجيران، يخططن لغسل الملابس غداً، رتق الثياب، تنقية الأعشاب الضارة، وسقى المساحة المزروعة بالخضراوات.. عاشت ياسنا هكذا لمدة شهر إلى أن سمع الناس صوت زئير أو بالأصح صوت قعقعة وهدير، أصوات مكتومة ولكن يمكن سماعها بوضوح، كان الصوت آتياً من بعد أكثر من عشرين كيلو متر، في موازاة الوادي في نيفيسينجى، ويقع الوادي بين سلسلة جبال فيلز وكرفانج الضخمة، ويشبه طاولة مسطحة تكسوها الحشائش المتناثرة والأحجار.

وبالرغم من بعد المسافة إلا أنه كان من السهل سماع الضوضاء كانت أصوات انفجار قنابل يدوية.. لم يكن الناس في بريسجيكا يعرفون ما يجري في البلدة حتى وصل أول الناجين من هناك.. يقول أنهم قتلوهم عمداً، بدءوا بقتل الأغنياء أولاً، ثم استمر القتل بعشوائية.. في ١٠ يونيو ١٩٩٢ كان أول قتل للمسلمين.

# ذئاب

فى الرابعة صباحاً من يوم ٢٢ يونيه، سقطت قنابل يدوية صربية على بريسجيكا قتلت امرأة واحدة، وأمطرت المنازل بطلقات الرصاص، وازدادت شدة الحرارة.. اختطف الناس ملابسهم وبعض الطعام وأخذوا أطفالهم، وفي رعب اتجهوا إلى جبال كرفانج، اختبئوا في الغابات، ولم يتمكنوا من الذهاب إلى أبعد، حيث فضاء واسع مكشوف.

أقبل الليل وبدئوا رحلة العودة من بريسيجيكا المدمرة إلى قرية كلجانا، قابلوا مسلمين من كلجانا وجيران آخرين من سكان المكان، كان من بينهم أشخاص من موستار كان قد أسرهم الصرب، ولسبب غير معروف أطلقوا صراحهم.. في كلجانا اضطروا إلى ترك سبعة عشر شخصاً من كبار السن لم يستطيعوا المشي عبر الجبال.. تتذكر ياسنا رجلاً ترك أمه لأنه لم يستطع حملها وترك لها طعاماً قليلاً، فإن له زوجة وأطفال، وليس له اختيار.. كبار السن الذين تركوهم لم يحتاجوا إلى طعام لفترة طويلة، لأنهم ذُبحوا ومزقت الذئاب أجسادهم،ونثروا عظامهم في أنحاء المقاطعة.

# الفخ

سار الرجال والنساء والأطفال جميعا على الأقدام، لا يعرفون إلى أين يذهبون، كان من بينهم بعض الخبراء بالغابات الذين عملوا فيها، وقد وعدوا الآخرين بأنهم سوف يقودونهم إلى موستار فهم يعرفون كيف يذهبون.

فى موستار كان الهدوء هو السائد في ذلك الوقت، فالصرب غادروا المدينة لأنهم عقدوا صفقة مع الكروات.. وكانوا في وقت سابق قد قتلوا مائة شخص وألقوا بجثثهم في مقلب القمامة، وكان منهم اثنين من أعمام ياسنا.

صعد الرجال والنساء والأطفال إلى جبل فيلز في المطر والبرد في الليل الصقيع والنهار شديد الحرارة، كان سفر صعباً، أخذت ياسنا أبنتها آيلا وعمرها ٩ شهور بين ذراعيها، بينما حمل حسن ابنه عمار الذي كان عمره ٤ سنوات، وفي اليوم الرابع سقطت قنبلة يدوية بجانب اللاجئين مباشرة، وأدى سقوطها إلى كارثة، فبينما كان هناك قتال مستمر ومتقطع بين الصرب والكروات في المنطقة، كان هناك صياح وذعر من الهجوم المتهور، قسّم الانفجار اللاجئين إلى مجموعتين، ياسنا وحسن وأخوه وزوجته وكل الأطفال انتهى بهم الحال إلى مجموعة صغيرة، وحماة ياسنا كانت في المجموعة الأخرى الكبيرة والتي كانت أكثر حظاً.. كشافو الغابات ممن كانوا على دراية بالجبال الداخلية، اختفوا أيضا على طول الطريق.. ياسنا ومن معها (١٢شخص) ولمدة أربعة أيام ظلوا يدورون في دوائر تائهة في الغابة، كما لو أنهم وقعوا في شراك فخ، جائعين وظمآنين.. وفي يوم ٢٦ يونيو لحق بهم سبعة جنود

من الصرب المدعمين بالسلاح، فأمسكت النساء الأطفال بحرص، وألقى الرجال مسدساتهم في الشجيرات.. ودون سب أو إهانة ظل الجنود يكررون: لا تخافوا!.. وأمروا المجموعة بالذهاب إلى مرعى فيلز، وهناك كان يوجد بعض القرويين من الصرب فقط وفي إحدى القرى كان يوجد مدرسة، وخارجها نظم الرجال الصربيين الاختيار بكفاءة، النساء والأطفال في جانب من الطريق، والرجال المسلمين في الجانب الأخر، وبدأت الإهانات والسباب، صاحت النساء الصربيات في المسلمات: موسات، عاهرات!.. أحنت النساء المسلمات رؤوسهن في صمت، وأخذت ياسنا ترقب الجانب الأخر من الطريق، لقد رأتهم يأخذون حسن بعيداً لا يعرف أحد إلى أين؟.. ثم رجعوا به بعد ساعة، ألقى حسن نظرة سريعة إلى زوجته وهز رأسه، كما لو أراد أن يقول أن ما هو قادم لن يكون على مايرام.

سأل أحد الصرب قائلا:

ماذا سنفعل بهؤلاء الفتيان ؟!

ورد عليه آخر :

دعنا ننتظر قدوم القائد.

وحسب ما تقول ياسنا أنهم كانوا يعنون زدزافكوكانديتش، وقد وصل بعد ساعات قليلة حوالي الخامسة بعد الظهر.. لقد أعطى أمراً.. وقد سمعته ياسنا :

فوق عربات، وبعيداً إلى بريزا.

فى الوقت ذلك لم تعرف ياسنا ما هى بريزا ولكنها تعرف الآن!.

أحذية مطاطية

في الغابة ونحن فيها الآن عديد من الكهوف، فتحات في الأرض.. في جاجو فايت، وهو مكان دل عليه شاهد، وإن كنا الآن بلا شهود، فالكل في حال رعب.. فأحد الشهود تحدث مع سنية ملافتشى وياسنا وقال لهم ألقوا نظرة في جاجوفايت.. وفي جاجو فايت قام العمال بقطع شجيرات ومن خلال جرف بالمعاول ظهرت فتحة كبيرة في الأرض، لم نتمكن أن نرى مدى عمقها، فلم يقم أحد ببذل أي جهد للنظر فيها.. لا يوجد معنا كشافي مغارات أو كهوف، وعلينا أن نتدبر أمرنا بأنفسنا..

د.كلونوسكى ترتدي ثياب بلاستيكية بيضاء، وتلف حبل حول وسطها كالحزام، أوصلنا به بعض الحبال الطويلة من طرف، والطرف الأخر ربطناه حول أقرب جزع شجرة سميك.. ارتدت د. كلونوسكى نوعا ما من القفازات المطاطية المرنة وأمسكت بكشاف وأخذت في النزول داخل الحفرة.. كان وضعنا منظم، فنحن لا نستطيع رؤية القاع، ولا نستطيع رؤية د.كلونوسكي بوضوح، إلا أنها بين الحين والآخر تشد لنا الحبل لنرخيه لها قليلا.. غابت عن الأنظار لمدة لا تزيد عن عشرين دقيقة، وأخيرا أخرجت رأسها فوق الأرض ثانية وهي تذب عن رأسها حشرات، وقالت :

- لاشيء هناك!

صرخت ياسنا وفقدت هدوئها وقالت :

- ماذا تقصدين ؟.. لا شيء هناك؟!

كانت ياسنا تأمل أن تعثر د. كلونوسكى على بعض من أحذية مطاطية حمراء!

# القبو

أقبل الليل، وكانت الأوامر أن يركب النساء والأطفال الحافلات التي كانت حتى وقت قريب تستخدم لنقل الخشابين إلى الغابة، وبدأت الرحلة إلى نيفيسينجى وفيها أنزلوهم في قبو منزل حقير وأحكموا غلق الباب عليهم، ووضع النساء أطفالهن على الأرض الأسمنتية وهم يبكون، فلا طعام ولا مياه للشرب ولا دورة مياه، بل حتى الهواء لم يكن كافياً، فلا يوجد غير نافذة صغيرة بمزلاج..

جاء في الفجر صبي صربي صغير لا يتعدى الثمان سنوات، يختلس النظرات فطلبت منه ياسنا بعض الماء للأطفال، فرحل الصبي وتوقعت ياسنا أن يعود وعاد بالفعل يحمل زجاجة ماء، ثم صاح بكلمة سباب فاحشة، وفتح الزجاجة يسكبها على الأرض أمام الأطفال الظمآنين، وبسخرية طلب منا أن نسأل من على عزت بيجوفيتشى (رئيس البوسنة آنذاك)

طلبت ياسنا من ابنها أن يبول، وشربت منه لتشجع إبنتها على ذلك!.. مر يومان وثالث، ولم يعد الأطفال في حاجة إلى دورة مياه فقد نضب البول لديهم!.. وفي الليلة الرابعة عند الساعة الحادية عشر، طرق الباب بشدة وسباب، فقد كان الطارقون لا يملكون مفتاحا، فكسروا الباب بشدة وعنف، كانوا خمس، يرتدون منهم اثنان جوارب فوق رأسيهما، وكانت ياسنا تمسك آيلا بذراعيها.. وابنها عمار يقف بجوارها .

كان المكان مظلما، أضاء الرجال كشافات في وجوه النساء، فتاة جميلة احتمت بابنها البالغ سبعة أيام، كانت حديثة الولادة، قال عنها الرجال لبعضهم أنه لا فائدة منها، ففهمت النساء ما جاء من أجله الرجال وبدأن في الصراخ، أخذ الرجال في ذلك الحين، اختين جميلتين وفضيلة، وأخذوا ميرسادا وهي ام لطفلين وياسنا التي حاولت الفرار ولكنهم أمسكوها من شعرها وضربوها، وأخرجوا سكاكين مهددين بذبح طفلها.. وذهبت ياسنا.. كن خمس نساء، ثلاثون امرأة وعشرون طفلا غادروا القبو، كان من بينهم آيلا وعمار.

## تزييف

شهر أغسطس.. تنتظر ياسنا في مقهى البيج بن، بوجه مشرق، وعينان سوداوان جميلتان وقد رسمت تحتهما خطا دقيقاً بقلم العين، على شفتيها أحمر شفاه، شعرها أحمر ناعماً، تبتسم أحيانا بتحفظ، تتحلى بسلسة ذهبية، وترتدي قميصا وبنطلون جيش أخضر بجيوب على الساقين وحذاء بيج، كانت جميلة في هيئة جيدة وتبدو معتزة بنفسها، وتقول أن زوجها أحب فيها ذلك..

معها نسافر نحو نيفيسينجى، جلست ياسنا على المقعد الأمامي وهي ترتدي نظارة شمسية، فتحت النافذة والرياح تطاير بشعرها، تقول :

- أنا ولدت هنا.. وسوف أموت هنا !.. الحياة مجرد زيف!

مررنا على بلدة صغيرة يسير فيها الناس هنا وهناك ويحتسون القهوة بالمقاهي.

- في كل واحد منهم أرى قاتلاً !

# فندق البحيرة

فندق على الطريق العام يبيت فيه الراحلون ليلتهم، على بحيرة بوراتشكو، به بعض حجرات للسياح، ومركز قديم للنسور البيضاء (هيئة الجيش الصربي الخاصة).. النساء الخمس الجميلات أُخذن إلى الفندق، الذي كان يوجد به بعض الجنود الصرب، يرتدون بريهات حمراء ويشربون الخمر.. أحدهم يدعى بيتر ديفجاكوفيتش، ومعروف باسم ديفجاك -كما تقول ياسنا- كان الأكثر وحشية فيهم (وهو يعيش الآن في نوفاى ساد بصربيا وله أسرة سعيدة) في الطريق حين أخذت ياسنا خلعت خواتمها وأساورها الذهبية بتلقائية وبلا تفكير وأخفتهم في جيوبها.. دفعها الجنود إلى حجرة صغيرة (٢متر مربع ) وكان بداخلها رجل لم تعد ياسنا تتذكر ملامحه، ولكنها تتذكر السكين الذي كان بحزامه، كان جالسا على كرسي وأمرها أن تجلس أمامه وأخذ في السؤال :

من أين أنت ؟.. هل أنت متزوجة؟.. كم عدد الأطفال لديك؟.. هل زوجك مسلم؟!

كانت تجيب إلا أنها أضافت أن الجميع لديها سواء، مسلم أم صربي، هي لا تحكم على الناس بجنسيتهم أو بدينهم.. سبها بكلمة فاحشة واستكمل أسئلته :

لو الجميع متساوي بالنسبة لكي فلماذا لم تتزوجي صربي؟ .. ألن يستطيع الصربي أن يعاشرك؟!.. Balinka (سب فاحش ومهين للمرأة)

كذبت ياسنا قالت إنه كان لها في الماضي في المدرسة صديق صربي، ولكنها لم تكن تريد أن تتزوج، سألها على الفور عن اسمه (وقد كان طوال الوقت محدقا لها بنظرة حادة، وكانت خائفة أن تحول نظرها عنه خوفا من الذبح!) نظرت إليه في عينيه مباشرة وقالت : جوران وأضافت أسم عائلته (ولد في المدرسة كان يجلس في المقعد الأمامي) فسألها :

عندما تزوجتِ حصلتى على كثير من الحلي الذهبية أليس كذلك؟ أين ذهبك؟..

فكرت أنها لو اعترفت أنها أخفته فسوف يقتلها، فقالت :

تركته في موستار.

فقال الرجل :

- سوف ألقي نظرة في جيوبك، والله نفسه لن يساعدك لو وجدت شيئاً ما! وأخرج السكين من حزامه، أحست ياسنا أنها النهاية.. وتوسلت إلى الله في نفسها أن تموت بالرصاص ولا تقتل بالسكين!.. نهض الرجل وأقترب منها، لمسها ثم رجع إلى كرسيه، وقال :

- أنا أصدقك.

دخل الغرفة بعض الرجال ثلاثة أو أربعة، وكان من بينهم بيتر ديفجاكوفيتش (الشخص الذي يعيش في نوفاى وعنده أسرة سعيدة).. ثم بدأ الاغتصاب.

# أسئلة لم تسأل

الاغتصاب بدأ!

كل ما استطاعت ياسنا أن تقوله، ولكنها قالته بصوت عال.. ربما تكون هي المرأة الوحيدة في البوسنة التي تعترف علانية بأنها كانت ضحية اغتصاب عرقي: الصرب اغتصبوها لأنها مسلمة.. ضحايا اغتصاب أخريات لم يتكلمن، فقد شعرن بالعار، وأخفوا عارهن عن أزواجهن (إن كان أزواجهن على قيد الحياة).. ولكن بعض النساء يتحفظن، يحكون بدقة كيف اغتصبن، فالقضاء الدولي يطلب منهن وصفا دقيقاً.. وفي هذه الروايات ظلن يكررن تفاصيل معينة : رجال كثيرون، حجرة مظلمة، ضرب فالوجه، وجودهن عرايا بتهديد سكين !

نحن لم نسأل المزيد من الأسئلة، فنحن لسنا محكمة !

الاسم ولقب العائلة

- كل منهم أراه قاتلاً !..

كررتها ياسنا، ولكنها تقول بالرغم من ذلك، حين تكون في المنزل في موستار، وكلما تنظر إليهم، تفكر بطريقة مختلفة :

- إنهم لم يكنوا جميعا قتلة، فكل جريمة لها اسمها الأول واسم عائلة الجرائم في نيفيسينجى شملت قتل عمد لخمسمائة شخص من المدنيين.. صحفية قريبة لـ إيناكامينيكا من جريدة سراييفو اليومية، اتصلت منذ فترة قريبة بـ نوفيكا جاسيتشى وقد كان قائد للجيش الصربي، سألته عن هذه الأيام في نيفيسينجى فأجابها قائلا:

- لماذا لم تسأليني عن مقابر الصرب الجماعية في سنة ١٩٤١؟!

الناس تقول أن زد رافكوكاندتش ( وهو الذي أمر بأخذ الرجال إلى بريزا) يعيش الآن في مكان قريب من تريبنجى، ولكن من يعلم مكانه بالضبط ؟!.. وحتى وقت قريب فإن كرستوسافيتش الشهير بـ كيتشو (رئيس الشرطة كان في السجن في فوكا (جمهورية الصرب) لأنه اتهم بالقتل العمدى للصربي فوجفودا (أحد القادة) بعد نهاية الحرب..

الآن نحن في فوكا، وحاولنا أن نتحدث إلى كيتشو عن أحداث يونية في نيفيسينجى.. ولكنه لم يكن بالسجن، فهو لم يصدر عليه حكم بعد، لذا فسوف يبقى حراً في انتظار محاكمة.. ولكن أين يعيش هو، ذلك ما لم نستطع معرفته !

## ترتيب

الآن أصبحت ياسنا تعلم ما الذي تعنيه كلمة بريزا، هي كلمة تطلق على مكان محيط به أكوام من الأخشاب، وفي ١٨ مايو ١٩٩٩ تم اكتشاف قبر جماعي به، عبارة عن حفرة عمقها نصف متر، بها سبعة وعشرون جثة كاملة، وقد شاركت د.كلونوسكى في إخراج الجثث، وكان ذلك القبر جماعي ثانوي.

ياسنا تعرف أنه من نهاية أغسطس ١٩٩٣ وبناءً على أوامر زدرافكوكانديتش ورئيسه الأعلى نوفيكاجاسيتشى، ذهب أربعة أشخاص إلى حفرة (التي يطلق عليها قبر رئيسي) لينتقلوا بعض الجثث إلى حفرة أخرى بجبال فيلز، فعليهم أن يرتبوا الأمور قبل دخول قوات الأمم المتحدة الوشيك إلى نيفيسينجى.

وبعد سنوات قليلة تحدثت ياسنا مع أحد الأشخاص الذي حمل الجثث (وهي تعتبره حاليا مثل أخ لها).. هكذا تم إخراج الجثث مرتين.. وجدت بعض العظام في حفرة، وبعض من بقيتها في حفرة أخرى، بل وجدت أجزاء من نظارة شخص ما في حفرة، وجزء منفصل عنها في حفرة أخرى.. الحفرة الأولى هي القبر الرئيسي، كان عمقه عشرة أمتار، وفوق الحفرة كان يوجد صناديق عددها ١٤٤ صندوق وبعض كابلات التليفون، حيث تم ترتيبهم في وقت سابق لعدم اكتشاف الأمر.. لا أحد يعرف على وجه اليقين إن كانت تلك جثث من كانوا بالمدرسة في ٢٦ يونية ١٩٩٢..

وجدت ياسنا رفات زوجها حسن، وغرزت د.كلونوسكى لافتة الموت كما هو معتاد.. وأقيمت مراسم الجنازة.

## أشجار

نقود سيارتنا إلى أسفل في طريق ممهد، تجاه بريسجيكا الواقعة بوادي فسيح، مررنا عبر القرية التي ولد فيها والد ياسنا وولدت هي فيها أيضاً، لم تدمر هذه القرية بالكامل، وفي الوقت الحالي يعيش فيها صرب في منازل المسلمين، ونحن الآن في بريسجيكا على جهة اليمين من طريق ضيق مسفلت، نكاد نرى المكان بصعوبة أطلال المنازل المصنوعة من الحجارة الرمادية بدون أسقف أو نوافذ وأبواب، مزجت مع المنحدرات الحجرية لجبل كرفانج الواقع خلفها.. الحر الشديد والهواء ساكن والصمت يسود المكان ولكن توجد بعض النباتات الخضراء التي تنبئ بوجود قرية في هذا المكان يوماً ما.. شجر كمثرى،

برقوق، جوز، بلسان، وشجر السمن ( نبات أحمر الثمار)، أشجار، شتلات، شجيرات كثيفة ونباتات متسلقة، جميعها تقودنا في الطريق وتوفر لنا الأمان، فالشجر لا يعوقنا من التقدم إلى الأمام، أشجار قائمة لا شئ يسقطهم أو يثذب فرعهم.. المطر الغزير في الربيع والخريف يبقيهم على قيد الحياة، بعض المنازل جيدة، بارزة هنا وهناك خلف الدمار ويبدون غير متناسقين مع باقي المشهد، ومغطاة بالمصيص ولها نوافذ وأسقف من القرميد الأحمر.. وجدنا الحياة تعود إلى بريسجيكا، امرأة عجوز ورجل خرجا لتحياتنا، هما سعداء لرؤية ياسنا، لقد لبسا أفضل الثياب كما لو كانا يتوقعان قدوم ضيوف، الرجل يرتدى سروال له ثنايا مُكواة بعناية وقميص بياقة زرقاء، والمرأة ترتدي بلوزة أنيقة وتنورة منقوشة ورباط حول الرأس.. ليس لديهما أطفال، ولم يزرهما أحد من قبل ،والصرب لا يأتون إليهما.

في ذلك اليوم عندما كانا يتجولان في الجبال وقنبلة يدوية سقطت مباشرة بجانب اللاجئين كان الزوجان في الجانب الأكبر من المجموعة التي كانت أكثر حظاً فبقيا على قيد الحياة، لقد عادوا إلى بريسجيكا منذ عهد قريب، وبمساعدة منحة الاتحاد الأوروبي أعادا بناء منزلهما الصغير، زرعا بعض الزهور والبصل وباستخدام خراطيم المياه أعاد الرجل بناء جزء من نظام الإمداد المائي،فلديهما ماء جارى وحمام جميل

لا توجد حافلات تذهب إلى بريسجيكا، وفي أحد أيام الأسبوع جاء صرب من نيفيسينجى وباعوا لهما قهوة، سكر، دقيق.. ليس لدى الرجل عمل، ويتقاضى معاشاً شهرياً مائة مارك،هو الذي يعينهما على شراء ضروريات الحياة، والرجل يعانى من مرض الكبد ولابد من إجراء

عملية جراحية، ولكن لا يوجد مكان يذهب إليه، فأي مكان سيكون بعيدا جداً والزوجان نادراً ما يتحدثان إلى الجيران القليلون الذين عادوا قريبا وقد تفرقت منازلهم فكل منهم بنى منزله بنفسه، ولذلك عليهم أن يسيروا لوقت طويل، والشمس حارقة ولا أحد لديه القوة، فجميعهم من كبار السن ومرضى.. في المساء يكون الظلام والهدوء، لذلك تشعر بالرعب إذا خرجت وسط الخراب، وفي الشتاء سيغطى الثلج المكان، وفي الماضي كان لديهم خشب للتدفئة من غابتهم، ولكن الآن لا توجد غابة فقد أقتلعها الصرب، لذلك فعليهم شراء خشب ، ينقلوه ويقطعوه بالفأس.. لا يوجد شباب هنا، هذا ما قالوه، عادت الحياة إلى بريسجيكا ولكن مؤقتا فقد تكون هذه سنوات القرية الأخيرة!.. يوجد مقبرة في بريسجيكا، وشواهد القبور القديمة من العصور التركية وعصر تيتو وقد آلت للسقوط، ولا قبور جديدة هنا فمنذ تسع سنوات مضت لم يمت أحد!.. الرجل والمرأة يتوسلان إلى الله الرحيم أن يميتهما في وقت واحد!

لم يسألا ياسنا أي أسئلة، فهما يعرفان ما عانت منه!.

## أخبار طيبة

النساء ضحايا الاغتصاب، تم احتجازهن في الفندق القريب من بحيرة بوراتشكو، كسجن مؤقت : ياسنا، فضيلة، ميرسادا، أما الأختان الجميلتان فلم يكونا هناك، كما كان هناك أيضاً اثنا عشر سجينا آخر محتجزون، قيل عنهم أنهم كروات من موستار القريبة.

جاء الصرب ليلاً - وتسميهم ياسنا البقر – وقد عذبوا الرجال وهم يتفاخرون أمام النساء المغتصبات بأنهم عذبوا الرجال بل وقتلوا أيضاً

أطفال!.. غطت النساء رؤوسهن بالبطاطين في جزع.. وفي الفجر جاء رجل وأخذ ياسنا خارج السجن يراودها ويقول لها أنه يحبها كثيرا ويريد مضاجعتها وأخذها إلى كبينة السياح بالفندق. كانت الأختان الجميلتان هناك ينتظران، وبسببهما أصبحت ياسنا على قيد الحياة، فقد تعرفت الأخت الأكبر سنا على الشريك المحلي لمصنع نسيج في نيفيسنجى الذي كانت تعمل به ووعدها بأنه سينقذهم بعد أن توعدهم بيتر ديفجاكوفينتش بالقتل.. سألهم رادوسلاف ما أن كان لديهن امرأه صربية صديقة في نيفيسينجى تستطيع أن توفر لهم مأوى، ردت الأختان بالإيجاب : نحن لدينا سفيتا.. وعند بحيرة بوراتشكو كان هناك شخص آخر، رجلاً مهذباً تتذكره ياسنا الآن وإن كانت لا تتذكر اسمه، كان طالبا في معهد أرثوذوكسي لإعداد رجال الدين وقد أُجبر على الالتحاق بالجيش، وقد سأل ياسنا عما كان يبكيها، فأخبرته عن الأطفال في القبو بلا طعام أو ماء ولا أم فأخذ يبكى قائلا :

- ياللعار!..

وفي الفجر أخذ رادوسلاف، ياسنا والأختين إلى نيفيسينجى.. أما ما حدث لـ فضيلة ومرسادا اللذان كانا مع الرجال المعذبين، فلم تراهما ياسنا مرة أخرى ولا هؤلاء الرجال أيضاً، وهما لا زالتا مفقودتان.

ياسنا قالت لـ رادوسلاف : خذوني إلى أطفالي (الأختان ليس لديهما أطفال) فأخبرهم أن ينتظروه في الفندق وعين جندى لحمايتهم وقد سألهم إن كن يردن قهوة.. وذهب إلى رئيس الشرطة الصربية وقائد الجيش الصربي الذي أخبره بأنهم يعرفون بالفعل أسمائهم وسوف يبذل قصارى جهده بشأنهم، وعاد رادوسلاف بعد ساعة وقال ما تتذكره ياسنا دائماً :

- عندي أخبار جيدة، الأطفال بخير، وقد أُخذوا بالأمس على سبيل المبادلة مع سجناء في الجانب الآخر، وأعطوني أربع جثث مع حافلة محملة بأشخاص على قيد الحياة.. كان من المفترض أن يكون عشرين طفلاً بالحافلة.. هل أطفالي موجودين؟!

سألهم راود سلاف إن كن لديهن الشجاعة الكافية حتى يعبرن جبل فيلز على مسؤوليتهم ليصلن إلى موستار.. فالأطفال سوف يكونوا هناك، وسوف تجدي زوجك هناك.. أخدهم سيرا على الأقدام إلى الجبل وأعطاهن بعض الخبز وطعام معلب وودعهن :

ربما يشاء الله لنا أن نتقابل مرة أخرى في يوم ما، ونستطيع النظر في عيون بعضنا.. كونوا حذرين ألا تقعن في أيدى ال سيسل جوفى (قوات عسكرية خاصة) آنذاك ولا حتى الله سوف يساعدكن، لا أحد سينقذكن أو ينقذني.

وقاد السيارة بعيدا.. وبدأت النساء في السير البطئ، يتوقفن فقط حين يحل الظلام.. حتى وقت قريب لم يعش أحد غير المسلمين على منحدرات جبل فيلز. كان على الجبل فقط ماشية في المراعي، وسمعوا رجلاً يقول تعالي هنا كلافيكا !.. انفجرت النساء بالبكاء فقد تعبن بما فيه الكفاية وظنن أن النهاية قد جاءت.. كان الرجل أو بالأصح الولد ينادى بصوت عال على بقرة!، وما أن رأى النساء، أخذ في العدو سريعا، والنساء يصحن خلفه قائلات : نحن منكم.. قال الولد بعد أن هدأ : الله الرحيم أرسلني حتى أقابلكن فأنتن تسرن مباشرة تجاه قرية مليئة بـ سيسل جوفى المشهورين بوحشيتهم.. استراح النساء في خيمة راعي الماشية، ثم تبينا الطريق إلى القرية المسلمة وتقابلن مع بعض الجنود

المسلمين، وفي الليل أخذوهن إلى موستار بالضاحية الغربية حيث أقيم معسكر لاجئين بحضانة أطفال.

شعرت ياسنا بسعادة لأنها وجدت حماتها ( أم حسن زوجها).. سألت ياسنا بلهفة : أين حسن؟.. الأطفال وصلوا بالأمس هنا ؟.. نظرت حولها .

- ياسنا .. لا يوجد أطفال هنا!

## امرأتان

على الجانب الآخر من جبل كرفانج القريب إلى حد ما من بحيرة بواتشكو، تقع حفرة بوريس أفاك.. وطوال قرون يقول أهل المكان أن هذه الحفرة لا قاع لها.. ولكن الآن ( نهاية أغسطس) وعلى عمق ٧٥ متر ترقد بعض العظام.. مصابيح كهربائية أضيئت والناس يعملون، وعند مدخل الحفرة يوجد حشد من الناس من بينهم جاسنا، واقفة أمام د.كلونوسكى، التي كسرت ساقها في قبر جماعي آخر منذ شهر مضى، وهكذا لا يمكنها العمل أسفل القاع.. وضع لها جهاز كشف مزود بكاميرا أُنزلت في الحفرة، وهكذا يمكن رؤية ما يحدث أسفل الحفرة.. أقارب المفقودين يشاهدون د.كلونوسكى وهي تدير عملية إخراج الجثث بجهاز لاسلكي.. بيوتردر اكير، عالم شاب في علم الإنسان يعمل أسفل القاع، ومعه امور ماسوفيتش رئيس اللجنة البوسنية للأشخاص المفقودين.

فى حفرة بوريس أفاك توقعنا أن نجد عظام ١٩ شخص من كبار السن الذين قتلوا في قرية قريبة في شهر يوليو ١٩٩٢، وذلك حسب رواية رجل بقى على قيد الحياة.. وقد بدا للعيان أنه بعد تنفيذ حكم

الإعدام ألقى بالجثث بالأسفل هنا، في حفرة لا أساس لها، وأخذنا نشاهد أوائل جثث الضحايا وهي صاعدة من الحفرة لأعلى.. وضعوهم العمال في الخارج على النجيل.. أقارب المفقودين يقفون حول المكان بينما تفحص د.كلونوسكى العظام، تحدد عمرهم وجنسهم، أخرجت بقايا جثث لامرأتين شابتين، لم تتوقع ياسنا ذلك، ربما تكون هذه العظام لـ فضيلة أو ميرسادا، دمعت عيناها وهي تقول ربما هما، ود.كلونوسكى تقول سنفحص.. وتسأل د.كلونوسكى بيوتر!.. هل يوجد أي أطفال في الأسفل ؟! ويجيب : لا.. لم أجد حتى الآن .

# حظ الأمهات

الأطفال الذين فقدوا في نيفيسينجي في شهر يونيه ١٩٩٢ هم:-

طفل رضيع.. سيبكوفيتش (عمره ٧ أيام، وليس له أسم أول).

آســـم سبيكوفيتش (عمره ١٧ سنة).

هاسو سبيكوفيتش (عمره ٣ سنوات).

هاســـو أكليسيتش (عمره ١٧ سنة).

ميهـــــو أكليسيتش (عمره ٥ سنين).

ميريما ألاي سيتش (عمرها ٧سنين).

نازيكا ألاي سيتش (عمرها ١١ سنة).

ســـادن ألاي سيتش (عمره ٧ سنين).

صالـــح ألاي سيتش (عمره ١٦ سنة).

أجـــــلا ماهاينتش (عمرها ١٢سنة).

إبراهيـــم ماهاينتش (عمره ٧ سنين).

ليجـــــلا ماهاينتش (عمرها ٧سنين).

عمـــــر ماهاينتش (عمره١٠ سنين).

أمينـــــة أومريكـــــــا (عمره سنة).

أجـــــان بلـــوسكيتش (عمرها سنة).

عمـــــار بلوسكيتش (عمره ٧سنين).

أميـــــــن بلوسكيتش ( عمره سنة).

سامـــرا بلوسكيتش ( عمره ٤ سنين).

آيـــــلا بلوسكيتش (عمرها ٩ شهور).

تقول ياسنا في الوقت الحاضر آيلا سيكون عمرها عشر سنوات، وليس لديها صورة شخصية لابنتها، فلم تتح لهم فرصة لالتقاط أي صور، وعمار عمره أربع سنوات وكان يرتدى حذاء أحمر مطاط، سيكون عمره في الوقت الحاضر ١٣ سنة.. ياسنا صورته وهو جالس على دراجة صغيرة.. ياسنا هي الأم الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة ممن كانوا في منزل الغلاية.. الأمهات الأخريات كن أكثر حظاً فقد ماتوا بصحبة أطفالهن .

لم نسأل ياسنا عن أطفالها مثل : كم كان وزنهم عندما ولدوا؟.. ما المدة التي أرضعتهم فيها؟.. هل كانا أذكياء؟ مرحون؟ مؤدبون؟ أو عن مقاس الأحذية الحمراء المطاطية .

# النصب التذكاري

تقع بلدة سريبرينتيشا في وادي صغير أخضرفي جمهورية الصرب، توجد منازل وبيوت متلاصقة من طابق واحد، ومدرسة وكنيسة أرثوذكسية على الهضبة..الجو حار والناس يجلسون خارج المنازل التي لا يملكونها، ويحدقون!، أحدهم يبكى ويضحك!.. لا يذهب أي أحد فيهم إلى أي مكان سيراً على الأقدام أو بسيارة، ولكن خارج المنازل التي يمكن أن تراها تجرى بعض الإصلاحات.. نساء مسلمات يطالبن باسترداد منازلهن القديمة في جمهورية الصرب، يجددونها باستخدام عمال صربيين ثم يبيعوها إلى الصرب أو يحاولن بيعها.. وفي براتانتش القريبة اكتملت الإجراءات الأولى بالفعل، ولكنها لم تكتمل بعد في سربيرنيتشا.

الصرب أرادوا صرب سربيرينيتشا ولكنهم لا يريدون شراء المنازل هن، فهم يقولون هذا ليس وطننا، هذه بلدة مسلمة، بلد الموت وإراقة الدماء، وأصوات تأتى الله وحده يعلم من أين؟.. همسات، صرخات، نحيب، بل أناس يسمعون بوضوح أحيانا صوت خمسة مؤذنين من خمس منارات خفية ينادون المؤمنين للصلاة، بالرغم من أنهم ماتوا منذ سنوات!.. السكان المقيمون حالياً في سربيرينيتشا يمكنهم الذهاب إلى سراييفو، فوجستا، الجاس، دونجاى فاكوف، باجوجنو او جلاموك، لو كان لديهم نقود من أجل الحافلات.. يستطيعون الذهاب إلى

السلطات المسلمة ويستشهدوا باتفاقيات دايتون ليحاولوا إصلاح منازلهم، النساء هن الذين يذهبن ويقابلن السلطات، فالرجال لا يحبون السفر .

بعض الصرب يصلحون منازلهم عن طريق الاتحاد الفيدرالي، ثم يجددونها بنقود الاتحاد الأوروبي، والنساء الصربيات يوظفن عمال مسلمين هنا ثم يعرضون المنازل للبيع، هذا ما يحدث عادة، أما النقود التي يحصلن عليها من البيع فيشترين بها منازل في جمهورية الصرب ولكن في سربيرينيتشا.. وعدتهم السلطات أنهم سوف يعيدوا فتح المصانع والمنتجع الصحي، وقالوا سوف يكون هنا عمل، والمنتجع الصحي لا يزال موجوداً هنا ولكن لا أحد يأتى لقضاء عطلة.. تريد السلطات تغير اسم سربير ينيتشا إلى سربوبران (الدفاعات الصربية )، وهم يعتقدون أن هذا سوف يساعد في رفع شأن المدينة.

الناس في سربيرينيتشا يقولون: الحرب سوف تساعد، الحرب ربما تغير شيئاً ما..لم يمض وقت طويل في بوتوكارى، وتحت شجرة في حقل بجانب الطريق، أزاحت الأرامل والأمهات المسلمات الستار رسميا عن شاهد لذكرى المذبحة نقش عليه:

سربيرينيتشا - يوليو ١٩٩٥، وأصبح تحت حراسة الشرطة، وغادرن المكان الذي تركوه منذ عدة سنوات، وحول الشاهد يوجد بعض السجاد، ولكن لا يوجد طريق يؤدى إليه بل فقط أرض خالية ولم يكن أحد يحرسه، والآن تقوم السلطات الصربية بحراسة النصب التذكاري للمسلمين حتى لا يحطمه أحد، فأنشئوا كشك حراسة خشبي مطلي بالألوان الوطنية الصربية ووضع أسفل شجرة، وكلف رجل شرطة صربي بحراسته.. وجدناه جالسا على كرسى واضعاً قدميه على جزع

شجرة ويديه على ركبته وفي هدوء يحدق!، إنه يحرس الشاهد الحجري المسلم.. لم نسأله لماذا عليه أن يفعل ذلك؟!

## العودة

إنه صيف ١٩٩٢، الحياة متوقعة في رايزا نوفيتش بالقرب من براى جيدور.. المداخل والمطابخ وحجرات الجلوس ملئت بشجر السمن (نبات أحمر الثمار )، والسنط والليل (نبات عطرى).. الأسقف بدأت في الانهيار والأرضيات تبلى، القطط والكلاب اختفوا وهاجر الحمام بعيداً، الأشجار نمت بكثافة على جوانب الطريق وتلاحمت في الوسط بين طريق الأسفلت يصنعون أقواس خضراء كثيفة.. الليالي هنا مظلمة أو كثيرة الضباب ولا يوجد ناس هنا وهنا، فلابد أنهم خائفون.. أما الليلة فكانت صافية والقمر مكتمل والناس يطفئون أنوارهم وياموا مبكراً.

## صرير أسنان

أخذنا في احتساء القهوة في منزل هيليما (فى الثانية والاربعين من العمر) التي أخذت تحكى لنا:

- أصبحت معتادة على المنزل الآن، أغتسل وأذهب للنوم، وعندما أشعر بالبرد أفترش لذلك بطانية حمراء، وأنام بدون أي صعوبة، أستغرق في النوم سريعا من الإرهاق بسبب اليوم الطويل، فأراه قادما لزيارتي!، فهو أحياناً يزورني، فأدير وجهي للحائط وأقول له ارحل، عد من حيث أتيت، في أي لحظه سوف استيقظ.. هو لا يسمع، يجلس هنا على الأريكة السرير عند الأرجل ويبتسم، لم أره يعانقني، يا ليته يحكي

ما حدث، أين ذهب في ذلك اليوم، يا ليته يسأل عن الطفل، سأظل أتكلم وأتكلم بدون توقف عن كيفية تنظيفي للشجيرات مثلا، كيف آذيت يدي وظهري.. لا شيءئ !، إنه صامت مثل حجر، فقط يحدق كما لو أنه يعرف كل شيء، أشعر أحيانا بالغضب منه لتركه لي مثلما يفعل.. وبمجرد أن يدخل طفلنا من الحجرة الأخرى، في الثانية أو الثالثة صباحاً يأخذ بطانية أخرى من الكرسي ذو الذراعين ويغطيني بها.. وأنا أستيقظ مع الشمس.

نفس الشيء مرة أخرى يا ماما !.. كنت تصرين أسنانك في الليل!.

هل كنت أطحن بأسناني مرة أخرى؟.. آسفة!

ماما!.. كما لو كنت تأكلين حجراً!

أشرب بعض القهوة، وأفتح الباب وأنظر فالخارج.. فالعالم لا يزال هناك! .

## آخر يوم من أيام العطلات

الأطفال يحدثون ضوضاء، النساء ينشرن الغسيل، الرجال ينخلون الرمال، ويصيح خالطو الأسمنت بصوت عال.. المنازل يعلو بنائها في أعمدة وأسقف أسمنتية بدون طوب لبناء الحوائط بعد، منتشرة في كل مكان، على الجانب الأيسر من الطريق والجانب الأيمن أمام طريق الأسفلت، أو في حقل أو أبعد بجانب الغابة.. يوجد تقريبا ثلاثون منزلاً جديداً، إذا نظرنا من خلال نوافذهم للغرب سيكون المشهد لـ براى جيدور، ولو نظرنا إلى الشرق سنرى مجموعة كثيفة من شجيرات.. الشجيرات تنمو فوق بقايا المنازل القديمة الخربة ،حيث لم يعد يعيش فيها أحد، سيصبح الأمر جيداً في رايز فانوفيتشى، ولكن ليس هذا العام !

الآن خالطو الأسمنت صامتين، فيوم عطلة الرجال قارب على الانتهاء، ويجب أن يعودوا من حيث جاءوا، بشرتهم أصبحت سمراء بسبب الشمس.. زوجات جميلات يحزمن لهم صناديقهم وحقائب صغيرة بها فلفل، إذا اشتريت فلفلاً من السوق الألماني فلن يكون أفضل من هذا الفلفل في أرض آبائهم.. الأطفال يلبسون ملابس عديدة الألوان ويجلسون في سيارة مرسيدس بنز فضية، في مقاعد آمنة للأطفال، ويلوحون لنا: - إلى اللقاء!

ومع كل زجاجة مياه من أجل الرحلة.. فلا يوجد مياه شرب هنا فمصدر المياه لا يعمل منذ سنوات، والآبار القليلة مغطاة بلوح معدن أو لوح من ألياف صناعية أو من رقائق خشبية، ولا يستخدمهم أحد.

وتأتي القبلات الأخيرة وسط الدموع، وربات المنازل المحليات يقفن على الطريق يودعن أقاربهم حتى يغيبوا عن الأنظار .

سوف يفتقدن أحبائهن، وبخاصة الأطفال الصغار.. ملابس الأطفال الناعمة على الحبال، ودمي ملقاة على الأرض.. آخر من ولد في رايزفانوفيتشى كان منذ تسع سنوات!.

# فلفل

على حافة القرية توجد بعض الصوب الزراعية، كانت قد شيدت بنقود من مستثمرين استراليين ومتقاعدين إيطاليين، ثم امتلكوها بسبب جسور جمعية الصداقة التي تأسست بمعرفة ربات المنازل المحليات.. هنا هن يعملن وهن محظوظات، لأنه في البوسنة وفي القرى المجاورة أيضاً معظم النساء لا يجدن عملا، فالنساء العاملات في براى جيدور يعملن في : مكاتب، مكتبات، محلات، ومصانع، وفي الوقت الحالي لا يوجد عمل لهن في المدينة، ولو كان هناك عمل فلا أحد يقيم في رايزفانوفيتشى سوف يذهب ويعمل هناك.

وفي البوسنة يبدأ العمل بمشاركة في فنجان قهوة.. ترى ما الذي يمكن أن تتحدث عنه امرأة من هنا مع أشخاص من براى جيدور خلال شرب القهوة، سيسألن من أين أتى هؤلاء الرجال.. ماذا عن الكنيسة الضخمة؟.. ماذا عن المساجد؟.. من أبقى على كنائس الأرثوذوكس؟.. ماذا عن الرقص بجانب النهر.

لماذا لم يعد أحد يرقص كما كان يرقص؟..

في الصوبات هم يزرعون الفلفل، مرتين في السنة : قرب نهاية فبراير وفي أغسطس عليهم تجهيز الأرض بمساعدة بعض الديدان الأمريكية التي منحها لهم شخص ما من خارج البلاد.. وما شابه ذلك زرع يغرس في شهر مارس وسبتمبر، من المفترض أن يستأصل منه العشب الضار كل يوم وأن يروى كل مساء.

وبينما تعمل النساء يتحدثن عن الشراء الذي اعتدن أن يفعلوه : ياقة مقاس ٤١، طول مترو ٨٠سم، حذاء مقاس ٤٣.

يجب أن يغلقن الصوبات الزراعية ليلاً حتى لا يتجمد الفلفل، ويفتحوهن قبل الفجر حتى لا يتلف.

يتحدثن عن أيام أجازتهن في كرواتيا : - اعتدنا أن نلعب كرة الطائرة على الشاطئ، وأعتاد الأطفال أن يصنعوا قلاع من الرمل، أحدهم يغرق ولكن زوجي أنقذه.

موسم الحصاد في الصيف والشتاء، وفي يناير يكون الفلفل غالي الثمن، خاصة من نوع رايزفانوفيتشى، فهو بدون أي رش كيميائي.. النساء يبعن الفلفل، وأيضاً الطماطم، والخيار، بقول، هيل وبطاطس.. في السوق في براى جيدور التي تبعد خمسة كيلومترات.. هن لا يحبين الذهاب إلى المدينة، فقط يمارسن عملهن في سوق خارجي، يبيعون خضرواتهم ثم يتسوقن هناك:

إنه أرخص مكان: للملابس، الأحذية، مستحضرات تجميل.. لا بل كله نفايات لأنه لا أحد هنا يشترى من المحلات!

اليوم باسمينكا (رئيسة الجمعية، عمرها ٣٠ عاما) اشترت ثوب حمام رمادي محكم على الجسم، دفعت عشرين مارك ثمناً له وهي سعيدة بذلك.

ستذهب غدا مع صديقاتها إلى نهر سانا، وبسلالهم الـ باريك (فطائر باللحم) والكافيار والشاي المثلج.. سيذهبون إلى سنسكاى موست التي تبعد ٣٠ كيلو متر بالرغم من أنه عندهم على نهر السانا أماكن قريبة منهم ذات جمال مميز، ولكنهم يفضلون أن يكونوا بين قومهم..فالاتحاد البوسني الكرواتي.. رايز فانوفيتشى والقرى المجاورة : بيستشاناى،

راكوفيتشاناى، همبارآينى.. سكانهم كانوا من المسلمين، ولعدة سنوات كانو ا محاطين بمستوطنات صربية من كل جانب، وصرب براى جيدور- التي كانت قبل ١٩٩٢ أغلبية مسلمة – اليوم محاصرة بالكامل بالجمهورية الصربية .

## مشهد رائع

يوجد بعض الجنود التشيك، يتمركزون قريباً منا حيث تعيش كيميلا (٣٤ سنة) ،هكذا نشعر بالأمان، فهم يقومون بحراستنا ويحضرون لنا الماء..أجسامهم قوية، طوال القامة، بشرتهم شقراء..يقولون عنا إننا جميلات، وربما يقولون نفس الشيء إلى الجيران اللاتي يضعن ماكياج.. أبناؤنا في سن المراهقة يحبون زيهم الرسمي .. يقدمون لنا الحلوى وبعض الخدمات يمتدحوننا حيث نقدم جايراك : هي وجبة من اللحم المغطى بأوراق كرم العنب، ويقولون أنهم يشعرون كأنهم في منازلهم.. وهم منتظمون في حياتهم العسكرية، وربما يعتمد عليهم الجيران أيضاً في أشياء ما، ولكنهم يتغيرون كل ستة أشهر، نقوم بتحزيم بعض من الكيك لهم حين يتأهبون للمغادرة من أجل الطريق، فهم ذاهبون إلى وطنهم وإلى بناتهم التشيك..فلا يوجد شخص طبيعي يرغب في البقاء هنا فمن يريد أن يكون له أطفال هنا؟!.. من يريد؟!

# الشاطئ

نهر الـ سانا يمكنك الاستحمام فيه، فلم يبلغ التلوث فيه درجة الانزعاج، فقط تطفو بعض العلب الصفيح أو الزجاجات الفارغة.. لا شيء كبير، مثل : الغسالات والبوتاجازات والسيارات المحطمة والكابلات.

تخلع النساء ملابسهن، ويدهن بعضهن لبعض أجسادهن بالزيت وهن يضحكن.. يذهبن إلى الماء ويسبحن، ثم يخرجن ليجلسن على مقاعد النهر الخشبية، ويجففن أجسادهن.. وفي جانب بعيد يوجد بعض الرجال على الشاطئ.. تستلقي النساء على مفرش أو بطانية، ويتناولن ما أحضرن معهن من طعام أو شراب، ويتحدثن عن الفلفل، ثم يعدن إلى منازلهم في المساء .. تجهز إحداهن طلمبة المياه في حوض أسمنتي لتملأ خزان على مقطورة عربة.. تركب إحداهن الجرار ولكنه لا يتحرك.. يتصلن بمكانيكي صربي من براى جيدور فيحضر لتوه قادما من الكنيسة، أنه مهذب، يصعد المركبة ويقوم بإصلاح الجرار وهو يتحدث معهن عن الفلفل.. تقوم النساء بري الفلفل وغلق الصوبات الزراعية من أجل الليل.. يذهبن للاغتسال والنوم!.

# شهر يوليو

فى منزل فضيلة (٣١ سنة) التي أخذت فالحديث:

- المكان هنا لطيف.. أليس كذلك ؟.. الدور الأرضي قد أكتمل وهكذا أصبح لدينا مكان ما نعيش فيه.. ماذا يوجد هناك ليخيفنا؟ ما الذي يمكنهم أن يفعلوه بي؟!.. يقتلوني؟!.. لقد ولدت هنا ومصممة على العيش هنا سواء رغب أولاد الزنا من براى جيدور أو لم يرغبوا.. لقد اعتدت السفر إلى براى جيدور للعمل هناك.. لقد اعتدنا الذهاب إلى المقاهي القريبة من النهر هناك ونذهب في المساء إلى الحفلات الموسيقية، ونرقص ونشرب الكوكاكولا.. تلك الأيام لن تعود أبدا.. كنت أعمل في مكان قريب، في كيراتيرم بمصنع للسيراميك ينتج ملفات مقاومة للنار، مسخنات، زهريات، طقاطيق سجاير وتماثيل صغيرة.. أما باقي قومي فيعملون في المناجم في لاج آباجيا، توماسيتشا، اومارسكا.. وتسترسل فضيلة :

- أهم الأحداث أنهم نهبونا، ليس زوجي وأنا فحسب بل كل المسلمين، قطعوا التيار الكهربي هنا والمياه.. جلسنا في البدرومات لأنهم كانوا يطلقون النار.. كان هدفهم أن يلقوا فينا الخوف والرعب، وكان لهم ذلك.. نقلوا أعداد غفيرة من المسلمين إلى المدينة، نقلهم الصرب إلى معسكرات.. من يصدق؟!.. وسمعنا أخيرا من خلال راديو يعمل بالبطاريات، تعليمات بالبقاء في المنازل لانهم يعتزمون تسجيلنا.. ثم كان يوم ٢٠ يوليو ١٩٩٢ وفي السابعة صباحاً، وبناءً على التعليمات رفعنا رايات بيضاء على نوافذنا، وقد جاءوا من كل جانب على

مركبات.. أحاطوا بـ رايزفانوفيتشى والقرى المجاورة، وهم يرتدون ملابس رسمية مختلفة: أسود، أزرق بحرى، ومموه.. إنهم الصرب.. الأشخاص الذين يرتدون الزى الأزرق البحري جاءوا من براى جيدور، وقد لطخوا وجوههم بلون أسود ويغطون أعينهم بنظارات قاتمة، معهم سكاكين وهراوات شرطة وبنادق ومناشف بيضاء على أكتافهم.. ذهبوا من منزل إلى منزل، لا تزال أصواتهم في سمعي حتى الآن!، منهم أصدقاء من المدرسة الابتدائية، أو من كلية فنية، أو من المقاهي القريبة من النهر.. أريد أن اذهب إلى المحكمة في هاجيو وأخبر القضاة الدوليين عنهم، ولكن من ذا الذي يستمع لي؟! ومن لديه وقت لذلك؟!.. بعض الناس دبر أمره ليهرب، كذلك فعل زوجي، فقد هرب إلى الغابة.. أما من ظل في القرية فقد أخذ من منزله للقتل: في الفناءات الخلفية وفي الحقول وحتى المراهقون لم ينجوا من القتل.. لن أنسى جثة شخص طويل ويرتدى تى شرت أزرق سماوي وسروال عمل أخضر، أستطيع أن أتعرف عليه وأقول: وداعاً لإنسان تعلم أنه لن يأتي أبداً مرة أخرى إلى المنزل!.. لقد منعوا النساء أن يذهبن قرب النوافذ، فكانوا يطلقون النار على الألواح الزجاجية، وقد مسحوا سكاكينهم بالمناشف البيضاء ورحلوا.. والآن أعثر على عظام مخلوطة مع درنات البطاطس، هل هي عظام زوجي؟! أم لأخي الذي عاد لتوه من ألمانيا قبل يومين ليقضى أجازة.. العظام منتشرة في كل المكان وتطفوا في الآبار.. امرأة من البيت المجاور كانت تعمل مع مسلم في مطعم، اغتصبوها ثم قتلوها.. ومن بقى من الرجال على قيد الحياة تم شحنه على عربات لوري ونقل بعيداً، إلى مكان مجهول.. والآن نعلم أنهم ذهبوا بهم على معسكرات

الموت حيث العذاب.. ربما عانى زوجي هناك أيضاً، ليتني أعلم ما فعلوه بجثته، سوف أتعرف عليها بقلبي.. في تلك الليلة السوداء التي لا أقوى على استعادة ذكراها، أطلق الصرب النار على اللمبات، وخيم علينا صمت القبور، أرادت النساء أن يكن معاً فأسرعن إلى منزل آخر، ونحن نتعثر في جثث الأزواج، ونبح كلب علينا ولكننا كنا خائفات أن نتحرك، الكل يبكى في صمت لا يسمعه الآخر.. أشرقت الشمس وصعدنا إلى النوافذ، ولن أنسى ما رأيت، فقد حطم الصرب ما في طريقهم ليمسكوا بالمرأة التي في البيت المجاور، بل امرأتين.. ولا زالت الأم التي اغتصبها سبعة رجال وابنتها أيضا التي تبلغ تسع سنوات آنذاك.. ويمكنكم أن تحادثوها، وقد قتلوا ابنها الذي كان يرقد بجوار المزرعة، ودفنته أمه بيدها العزلاء.. وتسترسل فضيلة:

- نهب الصرب النقود، مجوهرات، أجهزة تليفزيونية وأواني طهي، أخذوا الجرارات والمكينات.. كانت قريتنا غنية، فمن كل عائلة قد سافر شخص ما إلى الغرب ليعمل.. ومر اليوم التالي ثم الثالث والرابع ونحن قابعون في الداخل جائعون وبلا ماء، والحرارة لا تحتمل.. ويتغذى الذئاب على جثث أزواجنا، فقد رفضوا أن يتركونا نغادر المنزل لدفن الموتى.. أخذت الجثث في التحلل وبدأت تزعج الرجال من براى جيدور أيضا، فوجدوا رجلاً يبلغ الثمانين من العمر، أمروه بجمع الجثث من الطريق ومن الحقول ونقلهم إلى عربات لوري كل ذلك بمفرده، وكان له اثنين من الأبناء، فألقى أبناؤه على كومة الجثث في نهاية مهمته وأمروه أن يجلس على أبنائه وينقلهم إلى مكان بعيد .

# الجرار الصغير

تحتاج النساء إلى ناثر حبوب من أجل عملهن في الصوبات الزراعية، هو جرار صغير خفيف الوزن ويمكن قيادته في المنزل، هو ضروري ولكن ثمنه ٨٠٠٠ مارك ألماني، لذلك يتصلون بأحد الصرب هنا ولديه جرار ليستأجروه.. يحتجن أيضاً إلى معازق ومجاريف ومزارى وعربات ترواللى ويد ،. تريد النساء وأن يتملكن صوبات زراعية أكثر لكي يتمكن الكثيرات منهن من العمل، فحتى الآن لا يوجد عمل إلا لـ٤٣ امرأة، وتحصل كل امرأة على ١٥٠ مارك شهرياً (بالإضافة إلى ١٥٠ مارك معاش عن زوجها).. والأغلبية اللاتي ليس لديهن عمل يحصلن على معاش لا يزيد عن ١٠٠ مارك أو لا يحصلن على شئ مطلقاً إذا كان أزواجهن فترة عملهم كانت قصيرة أو ماتوا في سن الشباب.. يأكلن أي شي قمن تدبيره من زراعتهن: قمح، ذرة، بطاطس أو باذنجان.

في ذلك الصيف أخرج الصرب النساء من منازلهن حيث أخذن إلى منطقة منعزلة محاطة بالأسلاك وتعرضن للضرب والإهانة وانتظرن لساعات وساعات في الشمس مع أطفالهن، حتى نقلتهن حافلات، حيث وضعوهن في المعسكرات في ترن أو بولجى أو كيراتيرم في مصنع سيراميك، وظللن هناك بلا طعام أو شراب، وأخذت أخريات يتوافدن من كل مكان حتى أصبح المكان مزدحماً، وأخيراً ذهب النساء مع أطفالهن إلى مراكز لاجئين، وفيما بعد في بعض المنازل الخالية التابعة للصرب

الذين هربوا، وبعض النساء ذهبن عبر الحدود، وعلى الأخص إلى ألمانيا.. وعندما وقعت معاهدة سلام في ١٩٩٥ طلبت ألمانيا من نساء البوسنة المغادرة، لذلك عدن إلى بلدهن.

وبناءً على الاتفاقية الموقعة في دايتون، عاد الصرب إلى منازلهم القديمة أيضاً ولكن يبدوا أن ذلك كان على ورق فقط، فلم يتغير شئ منذ الحرب، إنما عادوا ليبيعون منازلهم، فالسلطات تخلي المنازل من سكانها غير الشرعيين بالقوة ويسلمون الملكية إلى أصحابها السابقين.

قررت النساء المسلمات العودة إلى رايزفانوفيتشى -الآن في جمهورية الصرب- التي كانت قد تغيرت ملامحها فلم تكن القرية التي عرفتها، فقد غطت بأحراش نباتات وشجيرات نمت في أفنية المزارع وعلى حوائط المنازل التي لم تعد مناسبة لأي شيء.. هن يقمن في منزل معاً في مبنى مكتب منهار أو في خيام، ثم حاولن الحصول على منح من الاتحاد الأوروبي، والاتحاد الأوروبي سعيد بإعطاء نقود إلى هؤلاء الذين عادوا إلى مناطقهم، فربما تمحي النقود أثار التنظيف العرقي الذي أرتكب هنا.. أخذت النساء أموالاً لإعادة البناء، وأصبح عليهن شراء مواد بناء وأجور عمال ليتم البناء خلال ٤٥ يوماً وإلا يرددن ما أخذته من مال، لذلك اتصلت النساء بأقاربهن في: ألمانيا، فرنسا، السويد، النمسا، في كل مكان ذهب إليه سكان يوغسلافيا للعمل فيه.. وطلبن منهم العودة للمساعدة، وعاد بالفعل بعض الرجال مع زوجاتهم وأطفالهم في أجازتهم، ومن لم يستطع يرسل نقودا.. ذهبت النساء أيضا إلى براى جيدور يبحثن عن عمال هناك، وبما أنه لا عمل في المدينة ونسبة البطالة عالية، حضر بنائون صرب لبناء منازل النساء المسلمات!

# المرأة العجوز

في الجراج حيث تعيش ميرسادا ( ٧٤سنة )، التي تأمل أن يدرك الناس ما تحمله من مشاعر الإخفاق والإشفاق وهي ترى أطفال وأحفاد الآخرين.. تقول ميرسادا:

- ليس لدى بنات، ابنان فقط وزوجي، فقدتهم ولم يعد لي أحد، وقد وجدوا أحد أبنائي، وجاءت زوجة ابني من السويد من أجل جنازته، وأخبرتني إنها تزوجت مرة ثانية وهكذا سيكون لحفيدتي أب جديد، وهذا أمر طبيعي أن يكون.. وأما عني فأستيقظ في الرابعة صباحاً ولكنى لا أبرح الفراش، فماذا سأفعل!، غير أنى أذهب حين تعرض عظام جديدة في سانسكاموست.. تغيرت الناس بعد الحرب، لا أحد يسأل إن كنت أكلت جيداً أم لا، التزاور كان في الماضي ولم يعد الآن، اختفت الضحكات والبسمات من الشفاه.. نساء عجائز وحيدات ولا يتلقون منح، أوروبا لا تريد أن نعيد بناء منازلنا، فنحن لا نساهم في التنمية.. ساعدتني امرأة من خارج البلاد فأعدت بناء كوخي تدريجياً، ففي أحد الأيام جاءت لزيارتي ورأتني أعيش في جراج .. كل شخص في البوسنة يعرف د. كلونسكى أنها تنقب عن عظام هنا وتحدد هوية أشخاص، قد وجدت أبني من أجلي، ووعدت أن تجد ابني الآخر.

# البئر

في الأيام الأولى من شهر سبتمبر كان هناك حشد من الناس في رايزفانوفيتشى، فيستخرجون جثث.. ستتولى د. إيوكلونوسكى العالمة في الجنس البشرى قيادة إخراج الجثث.. توجد ثلاث جثث في البئر : رجلان وامرأة، ترى لمن يكونوا؟! من المحتمل أنها لا تخص أحد من حولنا هنا.. ربما يكون قسيس كاثوليكي من براى جيدور ووالديه كبار السن، فشهود من الكروات يقولون أن الصرب أحضروهم هنا من المدينة منذ ثلاث سنوات بعد ذلك الصيف في ١٩٩٥، كانوا يعيشوا في رايزفانوفيتشى، القس لم يره أحد مرة أخرى، الآن استخرجت العظام وبإمكاننا رؤيتها، النساء أتين لإلقاء نظرة.

بعض الأمهات يفكرن في أمور أخرى، فحتى الآن أطفالهن يتعلمون في مدارس مسلمة في سانسكاى موست أو لاستشى بالانكا، وفي الآونة الأخيرة ارتفع ثمن تذاكر الحافلات الشهرية وليس لديهن مال كاف من أجل الرحلة اليومية.. وفي الأيام القلائل الأخيرة أصبح من الممكن للأطفال في رايزفانوفيتشى أن يذهبوا إلى مدرسة صربية في براى جيدور.. كيف سيأخذون دروسهم ؟ كيف سيعاملهم المدرسون الصرب؟ وماذا عن أقرانهم من الصرب؟ هل

سيتحدثون مع بعضهم البعض؟ وعن ماذا؟!

انتهى استخراج الجثث في فانوفيتشى، وتحرك الفريق بعيداً إلى قرية لاجابايجا حيث أكتشف قبر جماعي في منجم مفتوح.. أنه حفرة

كبيرة عمقها ٨٥ متر، وخلال شهر تم استخراج ٣٧٢ جثة، بعضهم يحمل بطاقة هوية.. من الواضح أنهم رجال من رايزفانوفيتشى .

## إيوا في منزل ميجرا

من الذي يتوقع هذا؟!.. فرح في منزل الأم ميجرا؟!.. حضر ناس من كل مكان اليوم ليشاركوا زائروها واجب العزاء.. لا شك أن الأم ميجرا تعايش قدراً كبيراً من الراحة ويمكنها أخيراً أن تنام بسلام، فستقام صلاة وجنازة وتشييع ليس لقبر، بل قبرين!.. الأم ميجرا لن تدع أحد يبكي، فسيكون نيبوجسا حاضراً، والأنسب أن يكونوا في تماسك وجلد. نيبوجسا كان صديق إدنا ابنة ميجرا، هو الآن رجل شرطة في براى جيدور.. عندما اندلعت الحرب، كان محققا في اومرسكا، وحين تم إعتقال إدنا، عذبها واغتصبها.

إدفين أخو إدنا كان قد شوهد في اومرسكا وعُذب أمام أخته.. إدنا دانوفيتشى التي ولدت في مارس ١٩٦٩ كانت طالبة

في علم التربية.

تجهز قارئ القرآن للتلاوة، وكان شاباً وسيماً على عينيه نظارة أنيقة.. وفي المطبخ نساء يصنعون حمل مشوي وبقلاوة.. تأخذ ميجرا غطاء مائدة صغيرة من الدولاب وتلقيه بحماس على ركبتي د. كلونوسكى قائلة لها بحسم :

- ساقيك!.. غطى ساقيك!

د.كلونوسكى بدت غير محتشمة، ليس فقط كونها تجلس مع الرجال في حين أن النساء في غرفة مجاورة، ولكنها أيضاً ترتدي جونلة أقصر

من اللازم، ولا تضع غطاء على رأسها كما أنها تستمر في الثرثرة والقارئ يحدق فيها لتتوقف!.. د.كلونوسكى كانت بالفعل صاحبة مجهود فقد استخرجت ٢٠٠٠ جثة ، سحبتهم خارج الآبار، نقلتهم من الكهوف، استخرجتهم من مقالب القمامة، أو من تحت أكوام من عظام الخنازير.. عمل تستحق عليه الشكر.. نحن الآن في منزل الأم ميجرا ونستمع للقارئ يتلو سورة ياسين :

" إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم فكل شئ أحصيناه في إمام مبين "

## الكتاب

ربيع عام ١٩٩٢ بداية الحرب..مسلمي براى جيدور - حيث عاشت ميجرا مع زوجها وابناهما - أخذوا من منازلهم، من الشارع، من العمل، ومن المحلات إلى معسكرات في أومرسيكا، ترن أوبولجى أو كيراتيرم، أو أخذوا مباشرة إلى الغابة.. وقد صدر منذ عهد قريب كتاب عن الأشخاص المفقودين من ضاحية براى جيدور، ويحتوى الكتاب على أكثر من ٣٠٠٠ أسم معظمهم أسماء رجال، والكتاب سميك وثقيل، أوراقه الداخلية مقاس A4، وكل صفحة تحمل تسع صور والأسماء طبقاً للترتيب الأبجدي.. وقد صادف محررو الكتاب مشكلة عدم وجود صور لبعض الأسماء فوضعوا مكان الصور المفقودة زهرة بندق "شعار البوسنة"، فالواضح أن أقارب أصحابها قد هربوا من منازلهم في رعب ولم يأخذوا أي صور معهم.. كثير من الأطفال في عمر ثمان وعشر سنوات لا يعرفون كيف شكل آبائهم وأخواتهم الأكبر سناً، فقد كانوا

صغار وعلى مراحل عمرهم فقدوا ذكرى تلك الوجوه، هم يرغبون أن يروا كيف كانت جباههم، أنوفهم، ملامحهم، وتعبيرات أعينهم .

فى صفحة ٨٨ كانت صورة إدنا وأخاها إدفين، وفي نفس الصفحة بعض الأسماء المدونة من ليس لهم صور: عصمت، ديرفيس، ساد، إسن، فيكرت.

ويجرى البحث عن صور المفقودين من خلال سجلات المدارس، المكاتب، الجيش وأماكن العمل، وسوف يسألون في الصحف ومكاتب الراديو والتليفزيون، فربما أحد لديه صورة جماعية لمفقود في المدرسة أو الجيش أو أثناء يوم أجازه، فربما يتصل أحد ويقول عندي صورة : لـ إبراهيم اديموفيتشى ( ولد عام ١٩٦١)، أسعد أهميتوفيتشى (ولد في ١٩٨١)، ميرسادا سيهك ( ولدت ١٩٧٣)، أزمير سيليتشى ( ١٩٧١)، آجدين دزينانوفيتشى(١٩٨٣)،الفي كاريك (١٩٨٦)،الفير سلوموفيتشى.. ربما يعرف أحد أين هم؟!، عائلاتهم يريدون أن يكون لديهم قبراً لهم .

- ربما يعرف أحد .. تسأل الأم ميجرا عنهم.

## اللغز المعقد

في ٢٤ يوليو ١٩٩٢ سارت حافلة عليها لافته " نقل طلبة " بعد الحادية عشر ليلا إلى مكان غير معروف، كان بالحافلة خمسون مسافر - بعضهم أسماءه غير معروفة- وبينهم امرأتان ساديتا (سنها فوق الأربعين، صغيرة الجسم، ومتناسقة)، إدنا ( شابة مرعوبة!).. ساعد إدنا أصدقائها من الثكنات حتى تنزل من الحافلة، فقد كانت في حالة إعياء وخور، كانوا يحسدونها لأنها كانت في طريقها لتستبدل مع سجناء

من الجانب الآخر، قالوا أنها في طريقها للنجاة!.. كانت في الحافلة الثالثة التي غادرت اومرسكا ذلك اليوم.

القبر الجماعي الذي وجد في هرستوفاجلافيكا كان به ٢٤ جثة كلهم رجال، استخرجتهم د. كلونوسكى في ديسمبر ١٩٩٨ حيث كان شتاء قارص (درجة الحرارة ناقص عشرين وأحياناً أسوء) ولكن كان الدفء في قاع الكهف (٨درجات)، استغرق العمل أكثر من أسبوع من الصباح حتى الليل.. لم يكن من السهل إحصاء الضحايا بسبب ما مر على الحدث من زمن (٦ سنوات من المذبحة)، وبسبب انحدار قاع الكهف (٦*٨متر ) ففي أحد الممرات تهاوت كل هياكل عظمية انقطعت عنها العضلات والغضاريف، انزلقت واختلطت معاً.. وبعيداً عن هذا التصنيف للهياكل العظمية فإن د.كلونوسكى لا يماثلها أحد في البوسنة، فهي دائما في حالة جيدة : تستيقظ في الفجر، تأكل على عجل وتكون جاهزة للعمل قبل الثامنة وتستمر في العمل حتى المساء، دون راحة أو توقف للعشاء، وإنما تتوقف عن استخراج الجثث مؤقتاً وتكرس وقتها في تجميع الهياكل العظمية المستخرجة، عندها معرفة وخبرة وضمير، ولا تكف عن العمل أبداً، تفحص مائة جثة مستخرجة وتوفق عظمة مع عظمة، أحياناً لا شئ يتوافق، تمر ساعات وأيام وهي تعاني من ظهرها وعيناها تؤلمها ولكنها تواصل البحث.

وهى حريصة أن تصل إلى نتائج ليس فيها أي شكوك، ويجب أن يكون التوافق تام: عظام مختلطة، وأخيراً تجد كاحل متوافق، عظم ساق أكبر، عظمة خارجية، فخذ وعظام حوض، ثم الفقرات: قطنية، صدرية، عنقية تتبعها الجمجمة التي تكون أحياناً بها قطع في هذه الحالة تسندها

إلى الخلف معا، في النهاية الذراع، المرفق، الكعبرية، ثم المعظم وعظام الأصبع، ينتهي الترتيب المعقد ويوجد الآن شخص كامل!.

د.كلونوسكى لا عقيدة لديها في الله، وتعلم أن الأسر التي تعمل من أجلهم يؤمنون بالله، ويعتقدون بالبعث والقيامة..لذلك هي تفضلهم أن يقفون أمام إلههم على أرجلهم، وتكريماً لهم أن تكون جماجمهم على أعناقهم، وتكريماً لهم أن يبدون على أحسن حال عندما ينهضون من الموت!

## كسور عظام

أين ذهبت الحافلة الثالثة القادمة من اومرسيك؟!.. في الربيع كان هناك شئ لا نعرفه، تولت د.كلونوسكى تحديد هوية ٣٧ جثه في قرية لاسكاى بلانكا، استخرجتهم من قبر جماعي آخر في كيفلجاناى، أخذت ملابسهم بعيداً عن العظام وغسلتهم حتى تستعيد ألوانهم، نشرت الملابس على الأرض الصلصال في قاعة الاستماع بمركز القرية الثقافي.. كان استدعاء أسر المفقودين عن طريق الصحف وفي الراديو، وكلما يتعرف شخص ما على بعض الملابس تعرض عليه د.كلونوسكى الأسنان، ثم الهيكل العظمى بكامله (إن وجد كاملاً) وتسأل بعض الأسئلة مثل : هل والدك أعرج؟.. هل كان أخوك يجلس قرفصاء؟.. هل ابنك أجرى جراحة أعلى الفخذ؟ وهكذا.. مرحلة التعرف كانت ناجحة، وسوف تقوم بأخذ عينات دم من أقرب الأقارب من أجل اختبار الـ D.N.A لبيان التوافق بين دماء الأقارب وعينات العظام على أساس صلة القرابة وبذلك لا يكون هناك أي شك.. ومن بين الأسر التي جاءت للتعرف على ذويهم سيدة عجوز جميلة : هي الأم ميجرا، تقول أنها تأتى كل يوم ثلاثاء

تساعد د. إيوا وتواسى الأسر، وتقول لنا وهي ترينا بقايا الملابس : هذا إدفين، ابني!، الجنس يتوافق، السن، طول القامة والأسنان، ولكن د.ايوا ليست متأكدة تماماً، ولم يجروا لنا اختبارات الـ D.N.A بعد.. عندي إدفين، وتميل لتصلح ساق السروال وهي تسترسل، وكان عندي أيضاً إدنا، وأعلم تفاصيل ما حدث إلى إدنتى، من ضربها بقسوة، من أغتصبها.. انه كان ينبوجسا صديقها من قبل الحرب، الشيء الوحيد الذي لا أعرفه هو أين ذهبت تلك الحافلة.. ملابسها لم يعثر عليها في أي مكان ولا الحذاء أيضاً، لا شيء، هيكل عظمي يحمل رقم KVO14، وكسور عظام كثيرة في الضلوع على كلا الجانبين، في الأكثر من الأمام والجوانب، وأيضاً من الظهر، عظام صدور مكسورة، فقرتين مكسورتين في الجزء العلوي من الجذع، عظمة كتف يمين مكسورة، بعض الكسور حديثة على الأكثر من ضربتين قبل الموت والبقية كانت في طريقها للالتئام منذ أيام وأسابيع من ذى قبل، هل هذا إدفين ؟!.. عندما علمت الأم ميجرا كل هذه التفاصيل غيرت تفكيرها: هذا ليس ابنها، تقول : - لا أستطيع أن أصدق!.. وهكذا لم توقع على المستندات، والإجراء المتبع أن يعطى أقرب الأقارب توقيعه.. سيكون اختبار الـ D.N.Aغالى الثمن..

الجثث التي لم يتم التعرف عليها ( تم التعرف على ١٠ جثث من ١٠٠ جثة) تم دفنهم في كوزاراك قريباً من براى جيدور في جمهورية الصرب، كما قررت المحكمة الإقليمية.. وسبق ذلك أخذ عينة من عظام كل هيكل عظمى لاختبار D.N.A بمعرفة د. كلونوسكى وقد أخذت دماء من ميجرا وزوجها عزير بالرغم من نقص التوقيع اللازم!،

وقد أرسلت العينات إلى معمل في مدريد، وجزء من عظام الحقيبة KVO14 تم إرسالها معهم.. واستمرت د. إيوا في استخراج الجثث التالية من القرية القريبة من دونجاى دابوفيك .

## الحفرة

في شهر مايو من هذا العام طلبت محكمة الهاجيو من اللجنة البوسنية للأشخاص المفقودين البحث في حفرة اللاى ساك القريبة من قرية دونجاى رابو فيك بجمهورية الصرب، فمن المفترض أن توجد جثث في هذه الحفرة حسب ما أخبر به شاهد للمحكمة.

الشهود يحصلون على مقابل نقدي مقابل المعلومات التي يقدموها وتحفظ أسمائهم سراً، وعادة ما يكونوا من الصرب.. يقولون أنهم رأوا - ولم يقل أحد منهم أنه شارك- كيف وأين تم القتل العمدي، وإلى أي حفرة نقلت فيها جثث القتلى.. يحدد الشهود المواقع ولكن لا يشاركون في استخراج الجثث حتى لا يعرفهم أحد.

كثير من الناس يأتون إلى مواقع استخراج الجثث : علماء في علم الانسان - من بينهم د.كلونوسكى -، وعلماء قضائيين، فنيين طبيين، مفتشين وفنيين شرطة، نواب عموميين وقضاة، محققين من محكمة الهاجيو، ممثلين عن اللجنة البوسنية للأشخاص المفقودين، متطوعين من منظمات غير حكومية، مترجمين، كشافي كهوف ومغارات (حين لا يحضرون تقوم د.كلونوسكى بنزول الحفرة لتكتشف بنفسها)، أخصائيين كهرباء، عمال ميكانيكا حفر، وعمال لرفع الجثث، كما يوجد أيضاً

خبراء ألغام فربما تكون الحفر ملغمة، ويوجد أيضاً جنود من القوات الدولية لحماية القافلة ويعطون إيوا حبال عندما تكون حبالها غير كافية .

إيوا تعمل في القاع، يساعدها أخصائي في علم الأمراض وقليل من العمال، بينما باقي الحاضرين في الأعلى، يستلقون في الظل وينتظرون لنهاية اليوم .

تنطلق القافلة من أجل استخراج الجثث إلى المكان القريب من دونجاى رابوفيك، كان الشاهد قد وضع علبة سجائر خارج الحقول وفي المكان المحدد للحفر، وقد وجدتها القافلة، وأسرع العمال في الحفر في العمل في طقس شديد الحرارة ( الأيام الأوائل من شهر يونية)، وتم قطع كل الشجيرات حول الموقع المحدد فلم يعد هناك أي ظل يستظل به، وتم عمل مجسات بأسفل الحفرة، ثم لم يجدوا شيء!.. تفرق فريق العمل، وتحدث محقق المحكمة إلى الشاهد مرة أخرى، الذي وعد بإلقاء علبة سجائر أخرى.. وعادت القافلة مرة أخرى ووجدوا علبة السجائر الجديدة التي كان واضحاً أن الشاهد ألقاها ليلاً، ولكنها كانت في نفس المكان المحدد من قبل!.. رجل أيرلندي من الفريق ذهب ليتمشى بسبب الملل، وبعد أن أبتعد مسافة قصيرة وقف أعلى حفرة مغطاة بصخرة كبيرة، نزل كشاف كهوف على حبل ثم صعد ليقول أن الحفرة عمقها عشرون متراً أخذت شكل كهف له حوائط بيج عسلي وملئ برواسب كلسيه تشكلت بفعل الزمن وكونت ارتفاعات صخرية، وفي القاع كان يوجد بعض الملابس والبطاطين والعظام، وأحضر الكشاف جمجمة واحدة كدليل على أنهم لآدميين.. كان هناك كثير من الهياكل العظمية التي كانت مشاكل لـ د. إيوا من حيث توفيق الجماجم مع العظام

الصحيحة.. سلالم من الحبال استخدمت للنزول في الحفرة، تم استبدالها بعد يومين بسلالم معدنية أفضل يمكن الثبات عليها.. فقد رأى زوج د.إيوا في منزله بـ أيسلندا (وهو يشاهد قناة الـ CNN التليفزيونية)، إيوا زوجته وهي تنزل في كهف بظهرها على سلم الحبال، فأتصل بها وعنفها بشدة!.. الآن هي تنزل في حفرة اللاى ساك ووجها للسلم.. ذهب معها أخصائي في علم الإنسان، وكان من المستحيل بناء سقالة خشبية، لذلك اضطروا أن يقفوا على العظام، وهذا أمر مزعج لـ د.كلونوسكى التي لا تكف عن التحذير واحترام كل عظمة صغيرة.. القاع ١٥ * ١,٥ متر فهو متسع ويمكن تثبيت الأقدام على الحائط، أنار أخصائيو الكهرباء الكهف.. يوجد ماء بارد ولزج يتساقط على وجه إيوا، وفئران تجرى هنا وهناك، عنكبوتات وحشرات أخرى، قسمت د.إيوا القاع إلى قطاعات (A,B,C,D,E)، كانت قد أعدتها خارج الحفرة، الجثث كانت مكدسة فوق بعضها وغير كاملة، منحنية وملتوية أو متراكمة مثل بسكويت على شكل عقد، كان القاع أسوأ من الموجود في هاريستوفاجلافيكا فهو موحل جداً وبشكل مخروطي.. كانت الجماجم مثل الكور، وتقول إيوا أنهم تدحرجوا تجاه الحائط، والحفرة كانت تشبه الصندوق الذي رجه أحد، فتبعثر كل شئ بداخله!، كانت هناك بعض البطاطين موجودة بالأعلى، ومن المؤكد أن حكم الإعدام قد نُفذ بالقرب من قرية دونجاى رابوفيك، ويقول الشهود أنه حدث بجوار الكنيسة الأرثوذوكسية، ومن المحتمل أن يكون الضحايا نقلوا فوق عربات كارو، فلا يمكن للسيارات الوصول هنا، لذلك يجب حمل الجثث المستخرجة على بطانية.. فريق استخراج الجثث قرر نظام للحبال ليتمكنوا من إخراج الجثث، في اليوم الأول

استخرجت إيوا تسع جثث من المكان التي كانت تقف فيه، كانوا كلهم رجال، فهى يمكنها تحديد الجنس في وقت واحد.. حزمت كل جثة في حقيبة بلاستيك وأرسلتهم إلى أعلى، الأم ميجرا في الأعلى منتظرة بالرغم من أنها تعيش بعيداً عن المكان ( ٣ساعات بالسيارة) فهي أحضرت عشاء من أجل إيوا: لحم مشوي وسلاطة.. وأخيراً علقت سقالة فوق العظام مباشرة وهكذا أصبحت إيوا قادرة على أن تجثو على الألواح أثناء عملها.. في اليوم الثاني استخرجت ١٦ جثة، وكانت الأخيرة عظام حوض امرأة، جونلة وثوب ضيق وسويتر أحمر، شخص غير عادي لأن أزراره على الكتف وخيط من اللولى، وعلى الفور قالت المعتقلات السابقات من اومرسكا: هذه ساديتا، هذا ما كانت ترتديه عندما صعدت إلى الحافلة.. ساديتا ميدنجانين أم إينز وهايز، مدرسة تاريخ.. المعتقلات السابقات انفجرن في البكاء.. إيوا لم ترغب في إخبار ميجرا أي شئ عن الحقيقة التي ربما تعرفها الآن.

يوم الأحد حيث لا يعمل الفريق قامت إيوا ومعها شخص أخصائي في علم الأمراض بغسل ملابس الجثث المستخرجة في حوض استحمام الأطفال.. بعض بقايا جثث أنثوية كانت قد وجدت بالقرب من القاع، أنها امرأة واحدة من أوائل من ألقي بهم داخل الحفرة، لقد كانت أصغر بكثير من ساديتا، هذا ما أكدته إيوا في الحال.. حزمتها في حقيبة، ولم تكن ميجرا تنتظر بالأعلى، ففي ذلك الصباح شعرت بإعياء وذهبت إلى المستشفى، وقد دبرت أمر إيوا بإعطاء تعليمات لـ عزير زوجها بأن يذهب ويأخذ عشاء إيوا.. لم ترغب إيوا إخباره بشيء، فهي تفضل إخبار ميجرا مباشرة..

عزير كان سابقاً رب أسرة ويملك شركة بناء، وهو الآن رجل عجوز منكمش (مواليد١٩٣٩) وقد تعرض سابقاً لضربات قاسية جعلته حالياً يظل صامتاً لأيام، وعندما يتكلم فإنه يرتجف من الرأس للقدم، يتلقى أحياناً ضربات من معذب غير مرئي! وينعكس الأمر أحيانا فيضرب ضحية غير مرئية أيضاً!.

تقول إيوا :

- ليس لدى القوة لأخبره أن الحافلة كانت هناك، وإدنا كانت هناك !.

## الدمية

هناك حالات يجرى فيها الضحايا بعيداً هربا من مرمى النيران، ولكن إدنا أُطلق عليها الرصاص في الصدر، هذا ما استطاعت إيوا أن تقرأه من العظام، هي تحادث نفسها في هدوء: أحمل مشاعر عاطفية، لا أنم الليل وإن نمت فبطريقة سيئة، أستيقظ في الثالثة صباحاً وأرى الجماجم بها فتحات، قد أطلقوا النار على شخص، اثنان، خمسة عشر، بإمكاني أن أرى ذلك، ولكن كيف يحدث ذلك لخمسين رجلاً في وقت واحد فيلاقوا حتفهم بخضوع؟!.. لماذا لم يفعلوا أي شيء؟ لماذا لم يحاولوا إنقاذ أنفسهم؟!.. قتله أقل منهم عددا أجبروهم على النزول من الحافلة، وبخضوع فعلوا ذلك، وبخضوع وقفوا تجاه الحائط!

في لجنة الأشخاص المفقودين يتذكرون كيف أن د.إيوا قادت استخراج الجثث من براى جيدور، وتقول أنها ستجد الأطفال، والأمر بالنسبة لها سواء طفل أو شخص عجوز، العظام ستكون عظام الفرق ،أن الأطفال أكثر عظامهم صغيرة وأقل تحملاً، وقد وجدت بالمصادفة

عظام صغيرة من النوع الذي كانت تتوقع أن تجده، ودمية سوبر مان بجوارها، تقول لنفسها يجب أن أضع الدمية في حقيبة بلاستك، فلا يمكنني أن أمسكها بيدي ووالد الطفل هناك بالأعلى.. تقول إيوا لنفسها : لقد أصبحت غير قادرة على امتلاك مشاعري، فأنا على وشك أن آخذ في البكاء.. لقد حكمت عقلي بتفكير وقلت لنفسي : إيوا، لابد لشخص ما العمل هنا، العظام هي العظام، وهذه لعبة وجدت بجوار بعض عظام، يجب أن أضعها في حقيبة البلاستك وتصعد مع الجثة في المرة الثانية .

## القاعة

أخبار قادمة من مدريد تجعل د. كلونوسكى سعيدة.. الـ DNA المأخوذ من هيكل عظمى بالحقيبة التي تحمل رقم KVO14 تتوافق مع ابن ميجرا وعزير داتوفيتشى، والقطعة الاخرى رقم O42 المأخوذة من حفرة لاى ساك يتوافق الـ D.N.A مع إدنا ابنة ميجرا وعزير داتوفيتشى.. وهذا هو العمل الأساسي لـ إيوا، وهو هدفها ورسالة حياتها.. تستدعى إيوا زوجها الذي يأتي في أجازة الصيف، وتلك فرصة لـ إيوا ليعمل معها ويقضي أيام أجازته في استخراج الجثث، فمهمتها كما تقول لا نهاية لها فمازال يوجد على الأقل عشرة آلاف شخص ينتظرون من يكتشفهم ويستخرجهم، وأكثر من عشرة آلاف شخص ينتظرون النتائج..

في الأماكن التي تستدعى إيوا إليها، لا أحد يهتم بدقة إذا كانت جمجمة تناسب عمود فقرى أم لا، فإذا تلاءمت خمس جثث مستخرجة ففي الغالب تكون مقسمة على خمس حقائب وتدفن في خمس توابيت، ما

لو كان عليهم أن يجمعوا كل العظام التي استخرجوها كما تفعل إيوا بدقة واجتهاد سيكون هناك عمل يكفى علماء الإنسان لمائة سنة .

وبرغم أن المتخصصين هنا يكونون أسرع وأقل دقة، فإن استخراج الجثث يجرى ببطء، أما تمويل العمل والإنفاق عليه فبمعرفة اللجنة الدولية للأشخاص المفقودين (تأسست في الولايات المتحدة الأمريكية من أجل يوغسلافيا السابقة) فلا أحد يهتم في البوسنة أن ينتهى استخراج الجثث بسرعة لأن ذلك وكما تقول إيوا : سيكون نهاية للأجور والرواتب العالية، والنجاحات المستقبلية والمؤتمرات الدولية، ويبدو أن الحفر سيستمر لسنوات حتى سن التقاعد، أما ماذا عن الأمهات والأرامل؟ من يهتم؟ من ينزعج بسببهم؟.. لا أحد يهتم بالذي أهتم به، وكم يحزنني ذلك، كما لو أنها ليست بلدهم ولا هم شعبهم، قد أكون بلهاء فيما أراه!!.. فربما إناس مثلهم لهم الحق أن يعيشوا، أليس هم كذلك؟!

هذا الخريف تعمل إيوا في ضواحي سانسكاى موست، ولأسابيع كانت تعيش في فندق، وشقتها في سراييفو كانت خالية.. هناك في مكان مهجور، قاعة كبيرة كانت تستخدم كمستودع لمواد البناء، ولكنها الآن مخازن لعظام آدمية وأي متعلقات وجدت معهم.. القاعة بها تهوية، لذلك لا توجد روائح، يوجد ٢٠٠ حقيبة أجساد بلاستيكية موضوعة على الأرض تشمل الأشخاص من حفرة لاى ساك، وبجانب العظام توجد: ملابس، ولاعات، محافظ جيب، صور - مؤرخة باليوم التي التقطت فيه عند : عماتهم أو خالاتهم - أحزمة مرنة.. زائرون جاءوا من المنطقة المحلية: من سراييفو، زغرب، فيينا، هامبورج، ونيويورك.. ألقى الزائرون نظرة وتوقفوا لمدة قصيرة أمام أحد الجثث، ثم عادوا إليها مرة

أخرى، وتحدثوا مع د. كلونوسكى التي أحياناً تستدعى القوات الدولية لاحتجازهم، يحنون رؤوسهم، يصلون، يبكون أحياناً ويغشى عليهم وفي تلك الحالة تستدعى د.إيوا الإسعاف.. يحضر أحياناً صحفيون من سراييفو ويسأل أحدهم إيوا فجأة : لماذا هي تفعل ذلك؟!.. تجيب بابتسامة : أنا لا أعرف!، يوجد شيء ما يقودني، فأنا أرغب أن أفعل شيئاً ما جيداً، وبودى أن أصلح الأخطاء التي سببها الآخرون، فأنا مهنتي نادرة وهي مطلوب أن تكون هنا الآن.. ومن مدة ليست بالبعيدة في اجتماع لأعضاء الأكاديمية الأمريكية للعلماء القضائيين، سأل صديق فرنسي د. إيوا نفس السؤال، فهمست له في أذنه قائلة : أفعل ذلك لأني مجنونة! .. نظر إليها وبجدية تامة أجاب: وأنا أعتقد ذلك!

في خلف القاعة ما يحدث فهو يحدث بهدوء وفي همس، إيوا أيضاً تتكلم بهدوء، وعندما سُئلت عن حماسها قالت : أنا لا

أحاول أن أبنى مستقبل لعملي فأنا عجوز على ذلك، هم يدفعون لى الآن، ولكن هناك شهور في سراييفو كنت أنفق من مالي الخاص وأستبدل نقوداً حتى اشتري لفة أوراق لأنهم لم يعطوني منحة، أنا أعمل بشكل حر، ومن الممكن أن أظل أعمل هكذا.

الأم ميجرا تأتى إلى القاعة وهي قد بحثت في ذلك المكان جيداً، وكثيرا ما أخذت بذراع أم وساعدتها حتى تفحص جثة تلو جثة، والآن هي تأتي لترى أبنتها فقد عرفت الأخبار الجيدة من مدريد، وبمجرد وصولها عانقت إيوا، ثم أخذت جمجمة إدنا في يديها، سألتها إيوا : كيف يكون الحال الآن؟!.. فأجابت: وماذا عن إدفين؟ هل استخرج؟.. يجب أن أدفنه بجانب إدنا ليكونا معاً.. نصحتها إيوا أن تكتب إلى رئيس

الشرطة.. منذ شهر مايو كان إدفين موجوداً في كوزاراك في جمهورية الصرب غير محدد الهوية بالصف السابع برقم KVO14.. استغرقت الإجراءات الشكلية شهرين.. وأخيراً في وقت ما كانت كل الأوراق جاهزة، وتدبرت الأم ميجرا سيارة وذهبت إلى كوزاراك، وهناك التقت بالشرطة الصربية وبعض الموظفين الصربيين، ووجدت بعض عمال صربيون أيضاً في موقع بناء فنقلت إدفين إلى القاعة في سانسكاى موست وعهدت إلى إيوا برعايته، وحددت بعد ذلك موعد للجنازة: السبت ٦ أكتوبر ٢٠٠٠.

الآن نحن نقف خارج القاعة في سانسكاى موست في مساحة ٢٠٠ متر وعرض ٣٠ متر، في صباح خريفي بارد وضباب خفيف، تقوم ميجرا بصب قهوة ساخنة من تورمس وتقدمها إلى الحشد الموجود بالقاعة، وتحيي أقاربها المقربين، وتتذكر امرأة شابة : لا داعي لأن تبكي، فنحن سوف نرى نيبوجسا.. ميجرا تعتقد أن نيبوجسا سوف يمثل أمام محكمة الهاجيو ليجيب عما فعله في اومرسكا منذ ثمان سنوات مضت، ومن وجهة نظر ميجرا فإن الله قد عاقبه من أجل إدنا، فهي تقول إن له زوجة ولكن الله حرمه من أن يكون له نسل وهذا أسوء عقاب.

إيوا منشغلة داخل القاعة، فهي نادراً ما تختلي بنفسها للراحة أو للتمشية أو لأخذ قهوة بمقهى أو رحلة إلى شاطئ البحر، يمكن أن نراها بوضوح وهي واقفة وسط الحقائب وبترتيب تقوم برّص العظام على الأرض، وتمسك عظام وتقول لمن يا ترى تكون؟!، يستدعيها أحدهم إلى الصف الثاني، الجثة الخامسة على اليمين، فتذهب لفحصها فهي دائماً في

خدمة الأسر، كان الذي يحادثها إينز ابن ساديتا، التي كانت برفقة إدنا عندما قتلت.

## ابن ساديتا

يقول إينز عن العقد الذي وجد مع عظام أمه :

- ليس لؤلؤ بل كانوا حجارة بيضاء من بحيرة، ماما حصلت عليهم من والدي، فهي لم تلبس ذهب أبدًا، فلم تكن تحبه.

ساديتا ميدين جانين، مدرسة تاريخ من براى جيدور، والآن هي راقدة في الصف الثاني بالجانب الأيسر.. سوف يعد ابنها لها جنازة في العاجل، ولكن قبل ذلك هو يريد أن يجد أخاه الأصغر هاينز، وهو متوقع أن يجده هنا، فمنذ ثمان سنوات مضت مشى هو وأخوه عبرا الغابة مع بعض ناس آخرين، في محاولة لاجتياز طريقهم من براى جيدور إلى كرواتيا، ولكنهم لم ينجوا فقد قبض عليهم في كمين وأطلق عليهم الرصاص فأخذوا في العدو السريع عبر الغابات، ومعظمهم بقى حياً، ولكن هاينز مات.

هاينز ميدين جانين ولد عام ١٩٧٠، وكان قد ترك في مكان ما في الشجيرات.. ومؤخرا شقت د.كلونوسكى طريقها عبر الأدغال تجمع عظام، فأحضروه إلى هنا، إلى القاعة فربما يكون هاينز هنا بالفعل.. ينتظر من أجل أن يتعرف عليه أخوه، هكذا هاينز كان قد قتل أثناء طريقهم عبر الغابة إلى كرواتيا.. إينز وصل إلى اومرسكا مع أمه وأبيه، والديه كانا مثقفان لذلك تم تصنيفهم في اومرسكا بالطبقة الأولى، و إينز أيضاً لأنه كان طالبا، فالطبقة الأولى شملت المسلمين وذوى العقول المتميزة والأغنياء وهم من شاركوا في المعركة ضد القوات

الصربية، وقد شمل ذلك التصنيف أيضاً إدنا وإدفين داتوفيتشى أبناء ميجرا..

ولدى الحراس قائمة، فالطبقة الأولى قد قتلوا جميعاً، بداية ضربهم الحراس وضباط التحقيق، وضربهم أيضاً الناس العاديين من أهل المكان، فأي شخص استطاع أن يأتي إلى مواقع المعسكرات طالما أنه صربي، ويلتقط أي شيء ثقيل : قضيب أو جاروف ويختار لنفسه معتقل مسلم ويضربه، هكذا فعل الناس العاديين من أهل المكان فلاحين وعمال وحرفيين.. والد إينز كانت كل عظمة في جسده تقريباً مكسورة، وقد مات بين ذراعي ابنه في اليوم الخامس لاعتقالهم، أما عظامه فلم يعثر عليها أبدا.

في ذلك المساء قبل أن تغادر الحافلة اومرسكا وعلى متنها إدنا وساديتا، ذهب إينز لرؤية أحد أقاربه ليحصل منه على سيجارة وفي نفس الوقت جاء حارس يدعى كيجو إلى ثكنات إينز ينادى أسماء ليستقلوا حافلة لمبادلتهم مع معتقلين من الجانب الآخر ( شملوا إدنا وساديتا) وامتلأت الحافلة إلا أربعة مقاعد خالية، لذلك كانوا ينادون على إينز، جرى أحد المعتقلين ليأتي به لكنه آثر المكوث قليلاً حتى ينهى سيجارته مع أقاربه، ولم يكن للحراس وقت للبحث عنه، فلسبب غير معروف كانوا متعجلين، وقام السائق بإدارة محرك القافلة لذلك نادوا على الاسم التالي في القائمة، فذهب شخص آخر بدلاً منه، وبعد أيام قليلة فصلوا القائمة السابقة ونادوا على قائمة أخرى، وكانت أوراقهم مبعثرة، فلم يكونوا متأكدين ممن تم نقله بالفعل ومن تركوه، لذلك نادوا مرة ثانية : إينز ميدين جانين فأجاب إينز أنه هنا.. فقال الحارس أنت ما تزال

على قيد الحياة؟! وقد عجز الحارس أن يخفي دهشته، هنالك أدرك المعتقلون أنهم لم يكونوا قد اخذوا للمبادلة ولكن إلى الموت!.. وأدرك إينز مصير أمه وأنه لا أحد في عائلته لا يزال حياً.. جلس إينز في مكان ما في الخلف وبدأوا الرحلة، إلى أن توقفوا بالسيارة خارج معسكر آخر في مانجاكا، ولم يطلب الحراس منهم النزول، فقد كانوا يحتسون الخمر ثم نادوا أولا رجل اسمه كرك، ثم شخص آخر اسمه ديد وكلاهما من الطبقة الأولى، ومباشرة بجوار الحافلة قاموا بذبحهم من حناجرهما، كل من بالحافلة شاهد ما حدث من خلال النوافذ، نادوا بعد ذلك على ميدين جانين! فلم يجيب إينز، لذلك أخذوا الرجال واحداً بعد الآخر، وخلال ذلك يحصلون على مشروب وراء مشروب، قتلوا سبعة عشر رجلاً قبل أن تنفذ قواهم.. طلع الفجر وكان الذين قد غادروا الحياة قد أُبعدوا في مشهد استعراض على الأرض، ووصلت الوردية التالية في معسكر مانجاكا وجمعوا الرجال في زريبة قريبة من المعسكر، وأمروهم أن يخلعوا ملابسهم بقصد العثور على نقود أو أشياء في ملابسهم التي أصبحت خرق بالية.. رأى إينز الحراس من أومرساكا قادمون نحوه فاختباء وراء بوابة، وبعد ذلك أغلق أحدهم البوابة (يعلق إينز في الوقت الحالي بأن الله وحده هو الذي فعل ذلك)، لقد كانت البوابة الرئيسية للمعسكر.. الحراس من اومرسكا رأوا إينز وهو يجرى بعيداً، حاولوا الذهاب ورائه، ولكنهم كان غير مسموح لهم لأن القائد المحلي أصر على تنفيذ الاتفاقيات الدولية التي تنص على الحذر لأي مسلح إدخال سجين حرب المعسكر.. اختبأ إينز في بعض الثكنات وكان يخرج فقط من أجل الوجبات ويعود بسرعة من الداخل، ومكث هناك لمدة شهر تقريباً، وفي

وقت ما سمع : ميدين جانين!، وهذه المرة كانوا يشيرون إلى والده، الذي أعطى الجانب المسلم اسمه مع أثنى عشرة آخرين ليبادلوهم مع بعض سجناء حرب صربيين.. قال الحراس : أبوك ليس هنا، لذلك ستأتي أنت! لم يريد إينز أن يذهب، فهو لم يصدق موضوع التبادل، ولسوف يقتلوه تماماً مثل أمه.. هم قالوا له: لو وافق قومك أن يأخذوك بدلاً من أبيك فسوف يطلق سراحك، وإذا لم يوافقوا ستعود إلى هنا، هو فكر أنه لن يعود أبداً فسوف يقتلوه في الغابة، وأخيراً ركب الحافلة وعبر الطريق الرئيسي من بانجالانكا إلى ياجكى، قادوا الحافلة ببطء ثم غيروا الاتجاه فوق طريق حقل على خط سكة حديد، ثم عادوا إلى لطريق الرئيسي وتوقفوا في منتصف الطريق، وأمروا الرجال بالنزول وعلى بعد أقل من مائة متر كان يقف ناس آخرين هنا وهناك، بدأ قليل منهم في الاقتراب وهم يبتسمون ويمزحون كما لو أنهم لا يعرفون ماذا يحدث هناك!.. الرجل المسئول عن الذين وصلوا تفحص السجناء وسأل الحراس الصربيون عما سيفعلون بهم ، فوزن الواحد منهم لا يتعدى ٣٠ كيلو، أما الجانب الصربي فوزن الرجل الواحد منهم مائة كيلو، فسيأخذ ثلاثة مقابل أن يسلم واحد لهم! هكذا كانت نكتة جيدة أضحكتهم!.. صعد المسلمون إلى إينز وسألوه : أين أبوك ؟! فأجاب بهدوء قدر المستطاع : لقد مات بين ذراعي، لقد ضربوه حتى الموت سحقوه تماماً!.. هؤلاء الابقار قتلوا أباك؟ ثم كرر الرجل الآخر بصوت عالى تعالى معنا، وبدأ إينز يمشى أسفل الأسفلت تجاه قومه، وهو يريد أن يجري ولكنه بالكاد واستطاع أن يمشى، فساقيه كانتا مثل الحجارة كل خطوة كأنها كيلو متر،

وكل ثانية كأنها قرن من الزمان، تحرك ببطء ناظراً تجاه الأمام دون أن ينظر خلفه .

يقول إينز أنه بمساعدة د.كلونوسكى تعرف على عظام أخيه ولذلك سيكون هناك جنازة وصلاة وقبر، بل قبرين لأن أمه

ستكون هنا أيضاً : ساديتا وجدت مع إدنا ابنة ميجرا.

## النعش الأول ثم الثاني

في ردهة المنزل الذي تقيم فيه، ميجرا وقفت تقود المعزيين لابسي ثياب الحداد بمحاذاة الحائط، تقودهم إلى باب على الجانب الأيسر حيث حجرة صغيرة وعلى أرضيتها الصلصال النظيفة، يوجد هيكلان عظميان موضوعين بجانب بعضهما وقد كفنتهما إيوا بجودة وتقول الأم ميجرا أن د. إيوا محبوبة عزيز ،

وعزيز الحاضر لا يقول أي شيء.. تابوتان لونهما أبيض تم إحضارهما بداخل الغرفة وبعض الأغطية البيضاء.. خرج النعش الأول تلاه الثانى للموكب الجنائزي المتجه إلى بوسان سكاى بيتروفاك، أما الدفن فسيكون على بعد ٥٠ كيلومتر في بيهاتشى، حيث كانت تعيش ميجرا، أما الآن فتعيش ميجرا و عزيز في منزل ليس ملكهما، وعادة ما يكون ملك لصربي..

- الأم ميجرا وجدت أبنائها !

هذا ما كان يردده البعض بالأمس لبعضهم، فهو يمثل أخبار جيدة.. وقد تجمع خارج المسجد أعداداً كبيرة لإلقاء نظرة وداع.. ودخل البعض (ليس الكل) داخل المسجد ليتلو سورة يَس.

المشيعون للجنازة كان منهم بعض الجيران السابقين من براى جيدور وهم مثل ميجرا أرادوا أن يعرفوا أي شئ عن أقاربهم الضحايا، وكان منهم صديقات شابات جميلات كن زملاء إدنا في الكلية، وأمهات الأبناء الذين قتلوا في براتاناك وسربرنيتشا وينتظرون أن يقمن لهم جنازة، وبالطبع د.إيوا كلونوسكى حاضرة أيضا.

عند جانب القبر أخذ الإمام بأن يسكن الله الموتى جناته.. وصعدت امرأة شابة إلى الميكرفون وهي تتحدث بحماس وشجاعة وتقول :

- عزيزتى إدنا!.. صعب علينا أن نجد الكلمات التي تعبر عن أسفنا وآلامنا، وما سمعناه من أخبار قيلت عندما وجدنا جثتك، قد أحيت فينا الذكريات الوحشية في أومرسكا، ترن أوبولجى، كيراتيزم، هؤلاء ممن كانوا منا هناك لن ينسوا أبد ولا لحظة واحدة ولن يجدوا راحة حتى نقاتل لنعاقب من أجبروك أن تغادري الحياة في شبابك إلى مثواك الأخير بمنتهى الوحشية .

تدعوا الأم ميجرا المشيعين العودة إلى منزلها بعد الفراغ من الدفن، ويقول الإمام :

- الأم ميجرا يقتدي بها.. فهي وضعت ثقتها في الله، وهي صابرة على معاناتها، وتعرف أن ولادة أطفالها وموتهم وجنازتهم كانوا قدرها، وهي راضية بقضاء الله رضاء المؤمنين..

ويسأل الناس الإمام : لماذا يسمح الله بحدوث ذلك ؟ لماذا يتخلى عنا؟.. شيء جيد أن يسأل الناس .

يصمت الإمام برهة ثم يجيب :

- في الأيام الماضية، ابتعد الناس عن الله، فابتعد الله عنهم.. والآن نحمل كراهية تجاه جيراننا الصربيين، ويعلمنا القرآن أنه لا يجوز ذلك، بل يدعونا إلى التسامح وإن كان صعباً أن نفعله، فنحن الآن في حاجة إلى الله أكثر من ذي قبل، فالله فقط يمكن أن يساعدنا في التغلب على الكراهية فينا.. وإن كان خوفنا من إعادة الكرة وأن الموت على أيدي جيراننا سوف يلاحقنا، فالله وحده يمكن أن يحمينا ويهدى كل منا إلى التسامح تماماً كما أرشد ميجرا .

وفى الحجرة الكبيرة في منزل ميجرا، تجهز الإمام لتلاوة سورة يَس بترتيل القرآن العربي، وتأخذ ميجرا غطاء منضدة صغيرة وتلقيه بحماس على ركبتي إيوا: ساقيك!.. غطى ساقيك!

وبدأت التلاوة :

{ * أولم يرى الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين *...}

سورة يَس الاية ٧٦ إلى نهاية السورة.

وحين أقبل الليل، ذهبت إيوا وهي تقود سيارتها إلى سراييفو، واستقبلت مكالمة على الموبيل، وأخذت في الحديث عن العظام، ثم تنهي المكالمة، وتأتي مكالمة ثانية جعلتها تبتسم فهي من ابنتها التي تحتفل بعيد ميلادها الثامن عشر..

ورغم المطر فإن إيوا تقود السيارة بسرعة في طريق منحنيات، وتتلقى مكالمة أخرى.. أنها ميجرا التي تتحدث وتقول لـ إيوا :

- أشعر الآن بتحسن.. انتبهي للقيادة والطريق!